التطبيقات التربوية للطبيعة الإنسانية في ضوء قصة بدء الخليقة

إعداد
د/ خليل بن عبد الله الحدري

ملخص الدراسة:

هدفت الدراسة تجلية نظرة الإسلام إلى الطبيعة الإنسانية في ضوء المصادر الأصلية، و تحديد التطبيقات التربوية للطبيعة الإنسانية في قصة بدء الخليقة، واستخدمت المنهج الاستنباطي، وكان من نتائجها: حصر العلم فيما يخضع للقياس والتقويم والتجريب تحت اسم بـ (المعرفة العلمية) جناية على الدين والعلم، فإن حقائق الوحي أثبت من حقائق العلم إذا تعارضتا، لا يمكن أن يحدث التعارض البتة بين معطيات العلم المادي في حقائقه الثابتة وبين الوحي في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، المقدمات التربوية القائمة على الحقائق العلمية التي أنزلها الله تعالى في الوحيين: كتاب الله سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ذات الصلة الوثيقة بتربية المسلم كثيرة جدا، كان أول ارتباط بين العلم والحياة على يدي نبي معلم مكلم مصفى مختار، وهو نبي الله آدم عليه الصلاة والسلام، وفي ذلك تصحيح للتشويه المتعمد الذي ربط الدين بالخرافة، ولفّق تهمة الصراع بين الدين والعلم، أثبت البحث أن البشرية تعرضت لاختطاف خطير عبر أحقابها الطويلة قام بهذا الاختطاف شياطين الإنس الجن، وأن مهمة الأنبياء والعلماء تركزت في تخليص البشرية من هؤلاء المختطفين، المعتدين على فطرتها، وتوحيدها، واجتماع كلمتها.

المقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد: خلق الله تعالى الإنسان لغاية عظيمة، ومهمة جسيمة، ناءت عن حملها السموات والأرض والجبال، وأَبَيْنَ أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان - بطوعه واختياره لما ركب فيه من الظلم والجهل والضعف وعدم التفكر في التبعات، وملاحظة العواقب - إنه كان ظلوماً جهولاً.

وقد تمثلت هذه المهمة في قوله تعالى: " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " ([1]) فقد نفت الآية الكريمة أن يكون الإنسان قد خلق لشيء سوى العبادة، وقد حُصرت المهمة بـ (إلا) وربط فعلها المضارع بلام التوكيد، مبالغة في التأكيد على هذا التفرد في الحكمة من الخلق والإيجاد.

ومع أنه سبحانه قد بين عظم المسؤولية، وثقل التبعات تجاه هذه المهمة الكبرى في حياة البشر، إلا أنه – بفضله ورحمته - جعلها يسيرة على من يسرها الله عليه، مصداقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي سأل فيه معاذٌ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن عمل يقربه من الجنة ويباعده عن النار فدله على عبادة الله تعالى، وأرشده إلى أبواب الخير، وبيَّن له مِلاك ذلك كله، ثم قال له: " وإنه ليسير على ما يسره الله عليه " ([2]) إضافة إلى أنه سبحانه قد وعد من يقوم بهذه المهمة - في ضوء مستطاعه - أن يحييه حياة طيبة، وأن يجعل جزاءه على أحسن ما يكون عمله، فقال سبحانه: " من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون " ([3]) وقد جعل - سبحانه –: "من مقتضيات معنى العبادة أن تصبح قيمة الأعمال في النفس مستمدة من بواعثها لا من نتائجها، فلتكن النتائج ما تكون، فالإنسان غير متعلق بهذه النتائج، إنما هو متعلق بأداء هذه العبادة في القيام بهذه الأعمال، ولأن جزاءه ليس على نتائجها، إنما جزاؤه في العبادة التي أداها " ([4]) وقد ذكر ابن جرير رحمه الله اختلاف السلف في تفسير هذه الحياة الطيبة، فقيل هي: الرزق الحلال في الدنيا، وقيل: الرزق الحسن، وقيل الرزق الطيب، وقيل القناعة، وقيل السعادة، وقيل: الإيمان بالله والعمل بطاعته، ثم ختم ذلك بقوله: " وأولى

---

[1]) سورة الذاريات، آية ٥٦

[2]) ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ج ٥ ص ١١٦ حديث رقم ٣٩٧٣ وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط، وصححه الألباني في سلسة الأحاديث الصحيحة ج ٧ ص ٨٤٥ / ٨٤٦ حديث رقم ٣٢٨٤

[3]) سورة النحل، آية ٩٧

[4]) أنور الباز، التفسير التربوي للقرآن الكريم، ج ٣ ص ٣٤٢

الأقوال بالصواب هي القناعة، وذلك أن من قنعه الله بما قسم له من رزق لم يكثر للدنيا تعبه، لم يعظم فيها نصبه، ولم يتكدر فيها عيشه، باتباعه بغية ما فاته منها، وحرصه على ما لعله لا يدركه فيها " ([٥])

ولعظم هذه الغاية جعل المولى - سبحانه - الإنسان محور ارتكاز الكون بعوالمه العلوية والسفلية، تدور حوله مكوناتها تذليلا وتسخيرا، كيما يحقق الحكمة من خلقه، والعلة من إيجاده، كما قال سبحانه: ".. . وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض.. . ([٦]) قال ابن جرير رحمه الله: " يقول - تعالى ذكره(وسخر لكم ما في السماوات من شمس وقمر ونجوم وما في الأرض من دابة وشجر وجبل وجماد وسفن لمنافعكم ومصالحكم جميعا منه) أي: جميع ما ذكرت لكم أيها الناس من هذه النعم، نعم عليكم من الله أنعم بها عليكم، وفضل منه تفضل به عليكم، فإياه فاحمدوا لا غيره ؛ لأنه لم يشركه في إنعام هذه النعم عليكم شريك، بل تفرد بإنعامها عليكم، وجميعها منه، ومن نعمه فلا تجعلوا له في شكركم له شريكا، بل أفردوه بالشكر والعبادة، وأخلصوا له الألوهية، فإنه لا إله لكم سواه. " ([٧]) وقال ابن كثير رحمه الله: " أي من الكواكب والجبال والبحار والأنهار، الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه " ([٨]).

وقد استقر في الأذهان أن العبادة - التي خلق الله الخلق من أجلها - ذات مفهوم واسع، ومدلول شامل، يصنع الإبداع المادي والمعنوي، ويحقق الاستقرار الديني والدنيوي، وهي عمل علمي يتردد بين التنظير والتطبيق، على أصول علمية صحيحة، يتلقى المسلم توجيهاتها من الله الخالق الحكيم الحميد العليم الخبير، العالم بما يصلح عباده، وما يصلح لهم.

ولتحقيق هذه الغاية العظيمة جعل المولى - سبحانه – الأداة المحققة لها هي التربية، تلك الأداة التي تحقق للنفس البشرية إنتاجيتها في كل ميدان، وهي المهمة التي سماها القرآن الكريم بـ (التزكية) في قوله تعالى: " قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها " ([٩]) قال ابن كثير: " قد أفلح من زكى نفسه أي بطاعة الله.. . وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل " ([١٠]).

ولعظم هذه المهمة الكبرى (التزكية) فقد أقسم المولى عليها أحد عشر قسما في كتابه الكريم فقال سبحانه: " {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا*) ([١١])

ولأن هذه التزكية لا يمكن أن تحقق ثمرتها ما لم يقف كل معنيٍّ بها على قواعدها ومقدماتها بطريقة علمية منهجية ترتب لما وراءها، ليكون المربي - من تطبيقاتها - على بينة، وهي أشبه بالمتطلب الذي لا بد منه معرفته قبل ممارسة العمل.

إذ كيف يشرع المربي في التعامل مع النفس البشرية وهو يجهل حقيقتها، غير مدرك للإجابة عن التساؤلات الكبرى ذات الصلة بها، من مثل: من هذا الإنسان؟ أين بدأ؟ وكيف؟ ولِمَ تحول عن مكانه الأول الذي كان فيه؟ وإلى أين اتجه بعد خروجه من مكانه الأول؟ وما سر وجوده؟

---

[٥]) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٤ ص ٣٥٠ – ٣٥٤.

[٦]) سورة الجاثية، آية ١٣

[٧]) الطبري، جامع البيان في تفسير آي القرآن، ج ٢١ ص ٧٨، ٧٩.

[٨]) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١ ص ١٩٠

[٩]) سورة الشمس، آية ١٠

[١٠]) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤ ص ٦٦٦

[١١]) سورة الشمس الآيات من ١ - ١٠

وكيف يعيش؟ وما علاقته بالكون من حوله، بكل موجوداته العاقلة وغير العاقلة؟ وكم سيعيش؟ وإلى أين يسير بعد الموت؟ وماذا يجد بعد الموت؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي عجز العالم المادي أن يقدم له إجابة منطقية مقنعة مما كان على أسوأ الأثر على التربية التي تلقاها في الفلسفات المادية القديمة والحديثة.

موضوع البحث:

تمر مسيرة الإنسان في رحلته الطويلة – عبر العالمين: عالم الغيب عالم الشهادة – بثلاث مراحل، كل مرحلة تحتاج إلى أن تفرد بأبحاث علمية تربوية متخصصة، ويمكن تقسم هذه المراحل إلى: مرحلة خلق الله أبينا آدم – عليه الصلاة والسلام – في الجنة إلى أن أخرج منها، ثم مرحلة حياته على الأرض منذ الولادة حتى الوفاة، ثم مرحلة ما بعد الوفاة إلى القرار الأخير في الجنة أو النار.

ولن يستطيع باحث - مهما أوتي من قدرات - أن يلم بكل تفاصيل هذه المراحل، فلا أقل من أن يعرض الباحث للخطوط العامة والمعالم العريضة للمرحلة التي يتحدث عنها.

من هنا، توجه الباحث إلى هذا الموضوع راجيا أن يحقق للعالمين في الميدان التربوي رؤية علمية تسهل لهم هذه المهمة التربوية الكبرى، في ضوء الحقائق العلمية التي جاء بها الوحي المقدس، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه تنزيل من حكيم حميد.

أسئلة البحث:

يتركز البحث في الإجابة عن السؤالين التاليين:

س ١ – كيف ينظر الإسلام إلى الطبيعة الإنسانية في ضوء مصادره الأصلية؟.

س ٢ ما أبرز التطبيقات التربوية للطبيعة الإنسانية في ضوء قصة بدء الخليقة؟.

أهداف البحث:

- تجلية نظرة الإسلام إلى الطبيعة الإنسانية في ضوء المصادر الأصلية؟.
- تحديد التطبيقات التربوية للطبيعة الإنسانية في قصة بدء الخليقة؟.

أهمية البحث: تنبع أهمية الدراسة من الاعتبارات التالية

١. ندرة الدراسات في هذا الجانب – حسب اطلاع الباحث -
٢. حاجة كل معني بتربية الإنسان إلى معرفة القواعد المهمة لتزكيته والمحافظة على فطرته ليظل قائما بالمهمة التي خلقها الله من أجلها.
٣. حاجة المؤسسات التربوية غير المباشرة، كالأسرة والمسجد ووسائل الإعلام وغيرها إلى هذه التطبيقات والمقدمات لتكون عونا للمربين على فهم الإنسان وكيفية التعامل معه وتوجيه قدراته، وحمايته من اجتيال الشياطين عبر بوابتي الشهوات والشبهات.

منهج البحث:

يرتبط المجال المعرفي بالمنهج ارتباطا وثيقا كيما تكون النتائج صحيحة ودقيقة، والمنهج الملائم لهذا البحث هو المنهج الاستنباطي، الذي يعرف بأنه: " استخراج المعاني من النصوص بفرط الذهن وقوة القريحة " ([١٢]) وقيل هو: " كل مستخرج شيئا كان مستترا عن أبصار العيون أو عن معارف القلوب " ([١٣]) وقال الماوردي: " الاستنباط مختص باستخراج المعاني من النصوص " ([١٤]).

---

[١٢]) الجرجاني، التعاريف، ص ٢٢

[١٣]) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٧ ص ٢٥٥

[١٤]) الماوردي، أدب القاضي، ج ٢ ص ١٢٥

والاستنباط مرتبط بالقدرات العقلية للإنسان، فكلما زادت قدراته كلما كان استنباطه أدق وأجمل وأحكم، ذلك أن المستنبط البارع هو الذي لا يقف عند المعاني الظاهرة للنصوص، إنما يتجاوز ذلك إلى الغوص في أعماقها، والربط بين متعلقاتها - سواء كانت في النص ذاته أو في غيره في مصدر واحد أو في عدة مصادر – وربط ذلك بالواقع الذي يعيشه الناس، ليشعرهم أن الوحي معهم يساير حياتهم ويحل مشكلاتهم، وأنه صالح ومصلح لكل زمان ومكان.

وسيستخدم الباحث هذا المنهج – بإذن الله تعالى - في استنباط السمات العامة لهذا المخلق المكلف (الإنسان) إضافة إلى القواعد التربوية من قصة بدء الخليقة، وفق الخطوات الآتية:

١. تتبع قصة بدء الخليقة في مرحلتها الأولى، وهي المرحلة الكائنة بين خلق الله تعالى آدمَ عليه السلام إلى أن أخرجه من الجنة.
٢. اعتماد القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة مرجعا رئيسا للحديث عن هذه الفترة من حياة الإنسان.
٣. العودة لكتب التفاسير المعتمدة وشروح الأحاديث الشريفة لاستكناه ما لا يمكن معرفته إلا من خلالها، بغية الوقوف على مراد الله تعالى من النصوص الواردة في هذا الشأن.
٤. إعمال الذهن في تلك النصوص، والبحث عن العلاقات المتضمنة فيها، سواء كانت في الآية الواحدة، أو في غيرها، مما يجلي المعنى المراد استنباطه.
٥. ربط القواعد التربوية بهذه المصادر ربطا وثيقا لتكون هذه القواعد ثمرة الحقائق العلمية في القرآن والسنة.

مصطلحات البحث:

التطبيقات التربوية:

زيادة فاعلية التربية والتعليم باستنباط القواعد التربوية المستنبطة من قصة بدء الخليقة وانعكاسها على الطبيعة الإنسانية.

حدود البحث: سيقتصر البحث على دراسة الحقبة التاريخية منذ بدء الخليقة وقبل هبوطها، إلى الأرض، لصعوبة استقصاء تاريخ الإنسان كله عبر مراحله الثلاث التي أشار لها الباحث سلفا، وبالتالي استنباط القواعد التربوية من هذا التاريخ الطويل.

الإطار المفاهيمي للدراسة:

المحور الأول: الطبيعة الإنسانية كما يراها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

لن يتحدث عن الطبيعة الإنسانية أحدٌ كما يتحدث عنها خالقها سبحانه، العالم بحقيقتها من حيث الخلق والتكوين، والمهمة التي كلفها بها، والمصير الذي ينتظرها، حديثا متوازنا يتسم بالعمق والتكامل والتوازن والشمول. كيف لا، وهو العالم بما يصلحها ويصلح لها.

وعلى هذا فقد اشتملت هذه القضية على عدد من العناصر التي تجلي حقيقة الطبيعة الإنسانية في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وفق الآتي:

أولاً: الإنسان خلق الله تعالى:

هذه إحدى المسلمات التي يشير لها الوحي في قوله تعالى: " يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم.. . " ([١٥]) وهذا هو الأمر الأول الذي يواجه تالي القرآن، عبر ربطه المنطقي بقضية الخلق، باعتبارها فطرة مركوزة في قلب كل إنسان، ولهذا جاء النداء في مطلع الآية للناس جميعا (يا أيها الناس).

---

[١٥]) سرة البقرة، آية ٢١

كما أكد المولى سبحانه هذه الحقيقة بقوله: " هو الذي خلقكم فمنكم كافر منكم مؤمن.. . " ([١٦]) فالإنسان خلق من خلق الله تعالى تدل عليه الفطر، ويؤكده النقل والعقل.

وقد جلى القرآن الكريم هذه الخلقة في أبعادها المادية والمعنوية، فقال سبحانه: " وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين " ([١٧]) فالآية الكريمة تشير إلى أن الطبيعة الإنسانية من فعل الله تعالى، وأنها مخلوقة – في أصلها البعيد - من مادة التراب، المتحول إلى الصلصال * المتحول إلى الحمأ المسنون *، ومخلوقة في أصلها القريب من ماء مهين، كما قال سبحانه: " ألم نخلقكم من ماء مهين " ([١٨]) وأن الله تعالى سوى هذا الخلق ونفخ فيها الروح لتستكمل حياتها التي أرادها الله تعالى لها.

ومع أن قضية خلق الله تعالى للإنسان هي من المسلمات التي يؤمن بها الملحد والمشرك بُله الموحد، كما قال سبحانه: " ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله.. . " ([١٩]) وكما قال سبحانه: " وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا " ([٢٠]) بل ويؤمن بها حتى الملحد في وقت الشدائد، وإن أنكرها في أوقات الرخاء، فقد كان رأس الملاحدة في عصره (فرعون) يقول في أوقات الرخاء: ".. . أنا ربكم الأعلى " ([٢١]) ويقول أيضا: ".. . ما علمت لكم من إله غيري.. . " ([٢٢]) فلما حلت به مواطن الشدائد تحركت بالحقيقة فطرته فقال: " قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ " ([٢٣]).

إنها فطرة مركوزة في أعماق النفس البشرية لا ينكرها أحد، بيد أن الباحث أبرزها – وهي مسلمة شرعية فطرية وعقلية – لكونها ترد على الأفكار الإلحادية الضالة التي باتت في عالمنا العربي والإسلامي تطل برؤوسها، فتجادل في وجود الله ظلماً وعلوّاً.

والمتأمل - في الرؤية العلائقية بين قوله تعالى: "إني جعل في الأرض خليفة"([٢٤]) - يرى أن هذه الآية سبقت قوله تعالى: " وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منهما رغدا حيث شئتما.. ." ([٢٥]) مما يؤكد أن هذا الإنسان سيكون مخلوقا لعمارة الأرض، وسيكون هو وذريته خلائف فيها، حتى يأذن الله تعالى بانتهاء الحياة الدنيا، وأن سكناه في الجنة - ابتداءً - إنما هي مرحلة مؤقتة، وهو ما أشار له ابن عباس رضي الله عنه كما أخرج ذلك الحاكم في مستدركه قال: "

---

[١٦]) سورة التغابن، آية ٢

[١٧]) سورة الحجر، آية ٢٨، ٢٩

* الصلصال: الطين اليابس الذي لم يسمع له صلصلة (ذكره الإمام الطبري في تفسيره ج ١٤ ص ٥٧

* الحمأ المسنون: الحمأ: جمع حَمْأة، وهو الطين المتَغيِّر إلى السواد. وقوله مَسْنُونٍ يعني: المتغير ذكره الإمام الطبري في تفسيره ج ١٤ ص ٥٩

[١٨]) سورة المرسلات، آية ٢٠

[١٩]) سورة الزخرف، آية ٨٧

[٢٠]) سورة النمل، آية ١٤

[٢١]) سورة النازعات آية ٢٤

[٢٢]) سورة القصص آية ٣٨

[٢٣]) سورة يونس آية ٩٠

[٢٤]) سورة البقرة آية

[٢٥]) سورة البقرة آية ٣٥

ما سكن آدم في الجنة إلا ما بين صلاتي الظهر العصر، كما قاله ابن عباس " ([٢٦]) وقيل: " نصف يوم من أيام الآخرة، وهو خمسمائة عام، وقال الحسن البصري: لبث ساعة من نهار، وقال وهب بن منبه: ست ساعات " ([٢٧]) ليعلم أن الفترة التي قضاها آدم عليه الصلاة والسلام إنما هي فترة يسيرة إذا قيست بزمن الدنيا أو زمن الآخرة.

وفي خلق الله تعالى لآدم عليه الصلاة والسلام ما يشير إلى الطبيعة الإنسانية في جوانبها المختلفة، وفق المطالب الآتية:

ثانياً: ثنائية الخلق:

فقد خلق الله أبانا آدم من قبضة من طين ونفخة من روح كما قال سبحانه: " إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ([٢٨]) فهاهي الثنائية الخلقية للإنسان تتضح في أمرين: قبضة الطين ونفخة الروح، ولا شك أن لكل مكون احتياجاته التي لا يمكن أن تستقيم حياته بدونها.

وإن كان بعض أهل العلم قد جعل التكوين (ثلاثياً) فأضاف للجسد والروح مكوِّن (العقل) استنباطاً من مجمل النصوص الشرعية، التي ذكرت (العقل) تحت أسماء مختلفة، كالحجر واللب والنهى وغيرها ([٢٩])

ثالثاً: متطلبات ثنائية الخلق:

بثبوت هذه الحقيقة (ثنائية الخلق أو ثلاثيته) يتأكد أن لكل مكون متطلبه الذي لا بد من تلبيته كي يحدث التوازن بين هذه المكونات، فمكوِّن الجسد متطلبه المتاع المادي بكل أصنافه ومجالاته من الطعام والشراب واللباس والنكاح والنوم والحركة والسكون والمرح وغيرها.

ومكوِّن الروح متطلبها في الإيمان بالله تعالى وما ينبعث عن ذلك من عبادات القلب اللسان والجوارح.

ومكوِّن العقل متطلبه في العلم والمعرفة وممارسة مهارات التفكير المختلفة بمستوياتها المختلفة العليا والدنيا.

على أن الجسد خادم للروح ومطية لها، ولا قيمة له من دونها، وقد بين المولى سبحانه أن الإنسان مخلوق لغاية واحدة ألا وهي عبادته سبحانه، فقال جل ذكره: " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " ([٣٠]) أي: " ليذلوا ويخضعوا ويعبدوا " ([٣١]) وقال الكلبي – رحمه الله -: " أي ليوحدون " ([٣٢]) قال ابن عاشور رحمه الله: " وأن تكاليف الله للعباد على ألسنة الرسل ما أراد بها إلا صلاحَهم العاجل والآجل وحصولَ الكمال النفساني بذلك الصلاح، فلا جَرم أَنَّ الله أراد من الشرائع كمال الإنسان وضبطَ نظامه الاجتماعي في مختلِف عصوره. " ([٣٣]) وإذا اشتغل الإنسان بالخادم عن المخدوم، وبالراكب عن المركوب فقد انتكست عنده الأولويات، وتلك إشكالية متعلقة بالتفكير.

---

[٢٦]) الصواف، الثاني من أجزاء ابن الصواف، ج ١ ص ١٦

[٢٧]) حسين بن محمد الديار بكري، ج ١ ص ٥٣

[٢٨]) سورة ص آية ٧١ / ٧٢

[٢٩]) خليل الحدري، منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، ص ٥١ وما بعدها.

[٣٠]) سورة الذاريات، آية ٥٥

[٣١]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٩ ص ٥٦

[٣٢]) المرجع السابق، ج ٩ ص ٥٦

[٣٣]) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٧ ص ٢٧

على أهمية العناية بالجانب المادي في الإنسان، مراعاة لفطرته، وتلبية لاحتياجاته التي لا يمكن أن تقوم حياته إلا بها، لأن الإسلام قد جعل للجسد حقه كما جعل للروح حقها وللعقل حقه، في توازن مثالي بين هذه المطالب، وقد جمعها المولى سبحانه هذه المطالب في قوله: " وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ.. ." ([٣٤]) فابتغاء الدار الآخرة غذاء الروح، ونصيب الحياة الدنيا غذاء الجسد، والعقل أداة هذا وهذا.

رابعاً: لا انفصام بين مكونات الخلق:

المتأمل في الإنسان المعاصر الذي ندت به الحضارة المادية عن هذه التوازن، يجده قد غلَّب أحد الجوانب، فأرخى العنان لمطالب الجسد على حساب الروح، أو أرخى العنان لمطالب العقل على حساب الروح، أو حتى أرخى مطالب الروح على حساب الجسد والعقل، كما تفعل الديانات الوثنية، وكما يفعل من نقل عنها من جهلة المسلمين، ممن تلبس ببعض البدع المنكرة، سواء كانت بدعاً في العقيدة، أو في العبادة، الأمر الذي صنع للحياة نصف إنسان ونصف مجتمع ونصف حضارة، وذاك عرجٌ ظاهرٌ لا تستقيم معه مشية الحياة في فردها أو أسرتها أو مجتمعها أو حضارتها الصالحة.

إن المولود حين يولد فاقدا بعض مكوناته يوصف بأنه طفل معاق، لأن اكتمال المكونات تقتضي السواء، وغياب أحدها غياب لذلك السواء، وما يقال عن الأطراف يقال عن الحياة في فردها وحضارتها، فإذا ولد الإنسان أو ولدت حضارته بطرف واحد في جانبها المادي أو العقلي أو الروحي فقد وُلد هو، ووُلدت هي مشوهة معاقة، لا تحقق للإنسان سعادته المرجوة، ولهذا قال الله عن الماديين: " يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون " ([٣٥]) إنه علم الظاهر من الحياة الدنيا، ولو أدركوا حقيقتها لما كانوا غافلين عن الحياة الأبدية في الدار الآخرة، إذ كيف يغلب عاقلٌ الفانيَ على الباقي، والحقير على العظيم، والقليل على الكثير، والنقي من الأكدار على المملوء بها، ولهذا وصف الله صنيعهم بصنيع البهائم والعجماوات، فقال سبحانه: " أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل.. . " ([٣٦]).

ولقد" تناول أصحاب المذاهب الفلسفية والنظم المادية قضايا الإنسان – أصله ونشأته، رسالته ومهمته، مصيره ونهايته – وهم لا يملكون من مقومات المنهج العلمي ما يحقق لهم النتائج والقوانين الحاسمة الصحيحة " ([٣٧]) فتباينت هذه الرؤى حد التناقض، وقام كل مذهب على ردود الأفعال التي يتخذها من سبقه أو حتى عاصره: " فنظرت إلى الإنسان نظرات متفرقة، وقطعته إلى أشلاء، فجاءت دراسة كل مذهب مخالفة لغيرها تبعا للزاوية التي نظر إليها أصحاب هذا المذهب، ومن ثم كانت النتائج مريرة والعواقب وخيمة " ([٣٨]) وبالتالي فقدت بوصلتها إلى الإنسان، حين جهلت حقيقته، وكان اعتمادها على قصوره وضعف علمه وقلة حيلته.

وفي المقابل تأتي الأديان السماوية التي ابتدع أربابها رهبانية مقيتة ما ارتضاها الخالق سبحانه لعباده، فأوغلت في العالم الروحاني بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، كما قال سبحانه: " ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم.. . " ([٣٩]) أو أدياناً وضعية وثنية أغرقت الروح في خيالاتها

---

[٣٤]) سورة القصص، آية ٧٧

[٣٥]) سورة الروم، آية ٧

[٣٦]) سورة الفرقان، آية ٤٤

[٣٧]) محمدي عبدالبصير حضيري، الإنسان في العهد القديم والقرآن الكريم، ص ٦

[٣٨]) المرجع السابق، ص ٦

[٣٩]) سورة الحديد، آية ٢٧

وتجلياتها وربطتها بعوالم الأرواح الشيطانية وجعلت آلياتها في ذلك السحر والشعوذة والخرافة فأهملت الجسد وأمرت بإهانته وإقصائيته فضلت عن الجادة وأضلت.

خامساً: توازن مكونات الإنسان:

تأتي التربية الإسلامية بمكوناتها الربانية وعبر مصادرها الإلهية لتجلي هذه المطالب لكل مكون فتعطي الجسد حقه باعتباره مطية الروح، وباعتبار انتمائه للعالم السفلي المادي من جهة، وتعطي الروح حقها باعتبار انتمائها للعالم العلوي من جهة أخرى، كما سلف بيان ذلك، وليس ذلك إلا للتربية الإسلامية التي بعث بها سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم فكانت هذه الرسالة العالمية بَوصَلتَها ومصادرَ اكتشاف حقيقتها المخبأة في عمق التاريخ البشري البعيد: " ومقتضى العقل السليم والفطرة المستقيمة – وتبعا لقواعد المنهج العلمي - أن أقرب الأشياء تصديقا لديه [لدى الإنسان] وأكثر الأحداث ثقة بها، وأقربها إلى القلب والوجدان، هي تلك الأحداث التي رواها أقرب من شهدها، وقصها من صنعها، إذ أن صنعته لها، مشاهدته إياها تجعله أكثر علم بها، وتجعلنا نحن أكثر تصديقا وقبولا لها " (٤٠) وذاك لا يكون إلا للخالق العليم الحكيم الذي وسع علمه كل شيء، وأحاط بكل شيء، وهو الذي أثنى على نفسه بقوله سبحانه في رده على بني إسرائيل وهم يجادلون في أنبياء الله: " أأنتم أعلم أم الله.. . " (٤١) وهي قضية عامة تتعلق بعلم الله الذي أحاط بكل شيء، كما قال سبحانه: " لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما " (٤٢) وتلك مسلمة شرعية وعقلية لا يختلف عليها اثنان، ولا تنتطح في التسليم بهما عنزان.

المحور الثاني: مهمة الإنسان الحقيقة التي خلق من أجلها:

أولاً: قصة الرحيل عبر العالمين:

المتأمل في الحقائق العلمية التي تضمنتها النصوص الشرعية يجد الربط الوثيق بين الخلق وبين المهمة التي خلق الإنسان من أجلها، كما قال سبحانه: " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " (٤٣) ولتحقيق هذه المهمة أشار المولى سبحانه إلى رحلة الإنسان الطويلة عبر العالمين: عالم الغيب وعالم الشهادة، واختصرها في ثلاث آيات عظيمات هي قوله تعالى: " إني جاعل في الأرض خليفة " (٤٤) وفي قوله تعالى: " اسكن أنت وزوجك الجنة " (٤٥) وفي قوله تعالى: " ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين " (٤٦) فهاهي قصة الرحيل الطويل من الجنة وإليها، عبر مراحل ستٍّ، يقطعها الإنسان من مبتدئه إلى منتهاه، من الجنة، إلى أرحام الأمهات، إلى الحياة الدنيا، إلى الحياة البرزخية، إلى أرض المحشر، إلى القرار الأخير في الجنة أو النار، كما يوضح ذلك الشكل رقم (١).

---

(٤٠) المرجع السابق ص ٧

(٤١) سورة البقرة، آية ١٤٠

(٤٢) سورة الطلاق، آية ١٢

(٤٣) سورة الذاريات، آية ٥٦

٤٤ سورة البقرة، آية ٣٠

(٤٥) سورة البقرة، آية ٣٥

(٤٦) سورة البقرة، آية ٣٦

شكل (١)

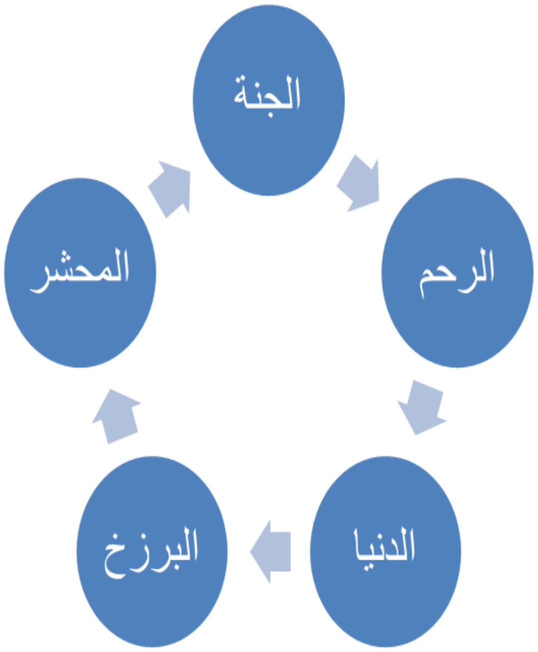

وعليه فقد خصص الله تعالى العبادة بدار واحدة، ومرحلة واحدة في هذه الرحلة، ألا وهي: الحياة الدنيا، بل وفي جزء منها، وهو الجزء الذي حدد الله فيه المسؤولية عن العمل، وهي الفترة من سن التكليف – بأحد علاماته - إلى الوفاة، ما دام الإنسان يتمتع فيها بقواه العقلية التي جعلها الله تعالى مناط التكليف.

لقد فتحت التربية النبوية عبر حقائق الوحي هذه المعاني على الأمة المسلمة في أول انطلاقتها فأسست أعظم جيل عرفه التاريخ، ملأ الأرض علما وخلقا ورحمة وتسامحا، وأسس حضارة ما تزال البشرية تدين لها بالفضل إلى اليوم.

ثانياً: دار العبادة ومرحلتها:

لقد خلق الله تعالى الإنسان لأداء مهمةٍ عليا، ووظيفةٍ كبرى في هذه الحياة المؤقتة، ألا وهي عبادة الله تعالى كما قال سبحانه: " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" (٤٧) وبما أن كل شيء في هذا الوجود للخالق المالك المدبر المتصرف لأحوال خلقه كيف يشاء، كما قال سبحانه: " ولله ملك السموات والأرض.. " (٤٨) فقد ثبت بمقتضى ذلك أن تكون العبودية له سبحانه، وهو ما بينه سبحانه في قضية التلازم بين التوحيدين: توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، كما قال سبحانه: " يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم.. . " (٤٩) والمتأمل في هذه الآية الكريمة يرى ارتباط العبادة بالميدان التربوي، فالتربية مأخوذة من: " رب يرب " فالراء والياء يدل على أصول: الأول: إصلاح الشيء والقيام عليه، فالرب المالك والخالق والصاحب، والرب: المصلح للشيء.

والأصل الآخر: لزوم الشيء والإقامة عليه، وهو مناسب للأصل الأول " (٥٠) وقد جمع معاني التربية أبو الأعلى المودوي فقال: " ودونك أمثلة لاستعمال الكلمة في لغة العرب بتلك المعاني المختلفة: التربية والتنشئة والإنماء، الجمع والحشد والتهيئة، التعهد والاستصلاح والرعاية

---

(٤٧) سورة الذاريات، آية ٥٦

(٤٨) سورة آل عمران، آية ١٨٩

(٤٩) سورة البقرة، آية ٢١

(٥٠) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ج ص ٣٨١، ٣٨٢

والكفالة، العلاء والسيادة والرياسة وتنفيذ الأمر والتصرف، التملك،.. . وقد جاءت كلمة الرب في القرآن بجميع ما ذكرناه آنفا من معانيها " ([٥١]) العبادة لمن ربى الناس بآياته الكونية والشرعية، فالرب هو الخالق والخالق هو المستحق للعبادة دون سواه.

ثالثاً: العبودية بمفهومها الشامل:

مقتضى ملكية الكون للخالق العظيم تقتضي أن تكون العبودية له شاملة لجميع جوانب الحياة، ليكون كل نشاطٍ للإنسان على الأرض دائراً حول هذا المحور، كما قال سبحانه: " قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له * وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين " ([٥٢]) فليست القضية رأيا أو اختيارا، إنها أمر الله بذلك " وبذلك أمرتُ " والأمر هنا يقتضي الإلزام، كما قال سبحانه: " وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم.. . " ([٥٣]) فالخالق إذا أمر لزم المخلوق أن يسمع ويطيع، من غير حرج ولا ممانعة، فذلك مقتضى العبودية الخالصة.

وتأتي الاستجابة المطلقة لله تعالى لأن المسلم العاقل يؤمن بأن الله تعالى أرحم به من أبيه وأمه، وأعلم بمصلحته من نفسه، فإذا استقر ذلك في نفسه، قاده إلى الامتثال الإذعان، إذ كيف لا أطيع من هو أرحم بي من أبي وأمي، وأعلم بمصلحتي من نفسي، إن الذي لا يسلم ولا يستسلم بعد اطلاعه على هذه المعاني له الموصوف بقول ربنا سبحانه: " سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ "([٥٤]).

رابعاً: النهاية والمصير:

أخبر المولى سبحانه أن المستقر في الحياة الدنيا إلى حين كما قال سبحانه: " ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين " ([٥٥]) مما يؤكد أن هناك عالما آخر ستؤول إليه الحياة، فما وصف المولى سبحانه الدنيا بأنها (أولى) إلا وبعدها آخره قال سبحانه: " وللآخرة خير لك من الأولى" ([٥٦]) وما وصفها بالعاجلة إلا ووراءها الحياة الآجلة، كما قال سبحانه: " كلا بل تحبون العاجلة * وتذرون الآخرة " ([٥٧]) وما وصفها بالدنيا إلا وفوقها الحياة العالية في الدار الآخرة كما قال " بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى " ([٥٨]) بل وسيكون فيها الحيوان الحقيقي كما قال سبحانه: " وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون " ([٥٩]).

هذه هي نهاية الإنسان، وذاك مستقره، مما يؤكد ضرورة أن تعنى التربية بهذه المعاني التي يتقلب فيها الإنسان بين دنياه وآخرته، بين عالم الغيب وعالم الشهادة، على أن تصاغ هذه المعاني في قواعد تربوية محكمة تتفتق على أثرها عقول الأجيال وتبنى بها قلوبهم في توازن يحقق للفرد والمجتمع مطالب دينه ودنياه وهو ما سيتحدث عنها الباحث في مظانها من البحث بإذن الله تعالى.

---

[٥١]) المودودي، المصطلحات الأربعة في القرآن، ج ١ ص ٢٣

[٥٢]) سورة الأنعام، آية ١٦٣

[٥٣]) سورة الأحزاب، آية ٣٦

[٥٤]) سورة الأعراف، آية ٤٦

[٥٥]) سورة الأعراف، آية ٢٤

[٥٦]) سورة الضحى، آية ٤

[٥٧]) سورة القيامة، آية ٢٠، ٢١

[٥٨]) سورة الأعلى، آية ٦، ١٧

[٥٩]) سورة العنكبوت، آية ٦٤

المحور الثالث: التطبيقات التربوية المستنبطة من قصة بدء الخلق في ضوء الحقائق العلمية

أولاً: القواعد التربوية المستنبطة من خلق آدم عليه السلام:

خلق الله آدم عليه السلام بخصائص لم تكن لغيره من البشر، حيث تشير الحقائق العلمية في الوحي المقدس (كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم) إلى أن الله تعالى خلق آدم وميزه عن غيره من المخلوقات بخمس خصائص هي:

الخصيصة الأولى: خلقه الله بيده: وهو معنى قوله تعالى: " قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ" ([٦٠]) وهما يدان تليقان به - سبحانه - من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل، وهذا هو منهج أهل السنة والجماعة في جميع صفات الله تعالى، وهو ما قرره الحافظ ابن رجب رحمه حين قال: " والصواب ما عليه السلف الصالح من إمرار آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تفسير لها ولا تكييف ولا تمثيل، ولا يصح عن أحد منهم خلاف ذلك البتة " ([٦١]) وقد أشار الباحث لذلك، لما لهذا المعنى من عظيم الأثر في توحيد منهج الأمة، لتفهم كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم على أصل علمية صحيحة، وهذا التوحيد على فهم الحيين من أعظم أهداف التربية الإسلامية وأجل مقاصدها.

الخصيصة الثانية: أن الله تعالى نفخ فيه من روحه كما قال سبحانه: " فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ([٦٢]) ومعنى أن الله نفخ فيه من روحه كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " قال النبي صلى الله عليه وسلم: " الريح من روح الله " أي: من الروح التي خلقها الله، فإضافة الروح إلى الله إضافة ملك، لا إضافة وصف؛ إذ كل ما يضاف إلى الله إن كان عيناً قائمة بنفسها فهو ملك له، وإن كان صفة قائمة بغيرها ليس لها محل تقوم به فهو صفة لله " ([٦٣]) ومعنى كلام ابن تيمية أن الروح التي في الإنسان ليست جزءً من ذات الله تعالى، وفي ذلك صيانة لعقيدة المسلم من أي انحراف قد يحدثه سوء الفهم للآية الكريمة.

الخصيصة الثالثة: أن الله تعالى أسجد له ملائكته، وهو معنى قوله تعالى: " وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ " ([٦٤]) وقد ذكر المفسرون أن السجود يتردد بين التعظيم أو بين السجود الحقيقي الذي كان مأموراً به في شرع من كان قبلنا.

الخصيصة الرابعة: أن الله تعالى أسكنه جنته، وهو معنى قوله تعالى: " وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا" ([٦٥])

الخصيصة الخامسة: أن الله تعالى علمه أسماء كل شيء، وهو معنى قوله تعالى: " وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا " ([٦٦]) قال ابن كثير رحمه الله: " والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها: ذواتها

---

[٦٠]) سورة ص، آية ٧٥

[٦١]) ابن رجب، تقرير القواعد وتحرير الفوائد، ص ٦٣ تحقيق: مشهور آل سلمان، دار ابن عفان، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤١٩هـ.

[٦٢]) سورة الحجر، آية ٢٩

[٦٣]) ابن تيمية، مجموع الفتاوي ج ٩ ص٢٩٠

[٦٤]) سورة البقرة، آية ٣٤

[٦٥]) سورة البقرة، آية ٣٥

[٦٦]) سورة البقرة، آية ٣١

وأفعالها " ([٦٧]) وقد سرت آثار هذا التكريم على ذريته من بعده، ففتح لهم من مغاليق العلوم ما يشهد به واقع الناس اليوم.

ثانياً: التطبيقات التربوية المستنبطة من قصة بدء الخليقة.

١. القاعدة التربوية الأولى: إعداد الإنسان للحياتين: الدنيا، الآخرة:

خلق الله الإنسان ابتداءً في الجنة، بخلق نبي الله آدم عليه السلام، في حين كانت ذريته في صلبه مصداقا لقول ربنا سبحانه: " وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم.. . " ([٦٨]) قال الطبري رحمه الله في تفسيره: "أي اذكر يا محمد إذ أخرج ربك ذرية آدم من أصلاب آبائهم فقررهم بتوحيده، أشهد بعضهم على بعض شهادتهم وإقرارهم، وقد سأل سعيد بن جبير – رحمه الله – ابن عباس - رضي الله عنهما – فقال: مسح ربك ظهر آدم فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة " ([٦٩]) وجعل مقامه فيها مؤقتا، كي يرسله لمهمة عظمى على الأرض ألا وهي عبادة الله تعالى، كما قال سبحانه: " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " ([٧٠]) ثم يعيده إلى مكانه الأول الذي كان فيه – وهو الجنة – إن نجح في أداء مهمته التي كلفه ربه سبحانه بها، وأن الغفلة عن إحدى الحياتين إنما تشويه للفطرة، وارتكاس في السلوك، وإفساد للعيش، الأولوي والأخروي، وذاك من أكبر المحفزات التربوية على القيام بالمهمة التي بها سعادة الإنسان في دنياه وآخرته.

هذه الرؤية هي فرق ما بيننا وبين الماديين النفعيين البراجماتيين الذرائعيين الذي لا يُحضِرون (الآخرة) في حياتهم بالكلية، أو يحضرونها - على استحياء - في بعض جوانب حياتهم، إن كانوا مسلمين، أما أن تكون زادا مُلهِماً لإصلاح الدنيا، وتحقيقاً تربوياً عملياً لمراد الخالق سبحانه، وتوظيفاً لعالم الغيب كي يضبط سلوك الناس في عالم الشهادة، فتلك – عندهم – الباقعة التي تقصر دونها الأفهام، وتتخبط في السير إليها الأقدام.

إنما الحياة الحقيقية - عندهم - هي العالم المادي المحسوس، وأن العَبَّ من متعه هي المنتج الذي يرجوه الإنسان، بعيدا عن العالم الغيبي الأخروي (الميتافيزيقي) الذي لا يُحسُّ ولا يقاس ولا يخضع للتجربة، فكان من نتاج ذلك اضطراب في الرؤية والسلوك، اضطراباً لم ينتج على مدار التاريخ إنسانا سويا، ولا مجتمعيا مثاليا.

وقد أشار ربنا سبحانه للحياتين في كثير من المواطن، في كتابه الكريم، وعلى لسان نبيه العظيم صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك قوله تعالى: " فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق * ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ([٧١]) وجعل لكل دار مواصفاتها، ومهامها، وحدد فيها علاقاتها، ومآلاتها، ليهلك من هلك عن بينه ويحيا من حي عن بينه.

٢. توظيف عالم الغيب لضبط سلوك النافي عالم الشهادة:

من المستقر في قلب كل مؤمن بالله تعالى أن يخلق ربنا – سبحانه - ذرة في ملكوته عبثاً، ومن هذا الملكوت الكبير: عالم الغيب، فقد تنزه - سبحانه – عن ذلك العبث في خلقه وشرعه، فقال سبحانه عن خلقه: " وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثر الناس لا يعلمون " ([٧٢]) وقال عن شرعه: " أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما

([٦٧]) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١ص ١٠٩

([٦٨]) سورة الأعراف، آية ١٧٢

([٦٩]) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٠ ص ٥٤٦، ٥٤٧

([٧٠]) سورة الذاريات، آية ٥٦

([٧١]) سورة البقرة، آية ١٩٩، ٢٠٠

([٧٢]) سورة الدخان، آية ٣٨، ٣٩

لقوم يوقنون " ([٧٣]) وعالم الغيب في الحياتين - الدنيا والآخرة - ذو ارتباط وثيق بعالم الشهادة، فقد قرنها الله تعالى في كتابه الكريم في مواطن كثيرة، كما قال سبحانه: " هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ " ([٧٤]) وكما قال جل ثناؤه: " عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ" ([٧٥]) والمتأمل في الآيات كلها في القرآن الكريم يجد أنها قدمت عالم الغيب على عالم الشهادة، وذلك لكبر مساحة عالم الغيب في رحلة الإنسان من الجنة وإليها، ولأن الإيمان بقضايا الغيب ذو أثر تربوي فاعل في ضبط سلوك الإنسان في عالم الشهادة.

إن عالم الشهادة وحده لا يكفي لضبط السلوك، إذ مهما تنوعت أساليب الترغيب الترهيب في جنباته، ومهما كان إبداع منتجيها – أفراد أو مؤسسات في الميادين التربوية أو الأمنية - ستظل قاصرة تجاه ضبط السلوك البشري، وليس أدل على ذلك من واقع الحياة اليوم، فها هو العالم بكل مؤسساته التربوية والأمنية يعيش اضطراباً سلوكياً على كل صعيد، على صعيد الفرد، وعلى صعيد الأسرة، وعلى صعيد المجتمع، وعلى صعيد الحضارة المتوازنة في جانبيها المادي والمعنوي، في جوانب الحياة الإيمانية، والخلقية، والاجتماعية، والاقتصادية، والتعليمية، والإعلامية، والسياسية (ولم يقصد الباحث الاستقصاء) هاهي المصحات العقلية، ونسب الانتحار، وأمراض الإيدز ومثيلاتها، ها هو الظلم والعدوان يضرب بأطنابه في كل زاوية من زوايا عالمنا المادي.

لقد وصل هذا العالم المادي في مكافحة الجريمة إلى إنشاء المراكز العلمية المتخصصة، واستخدم الأقمار الصناعية لإيقاف زحفها المخيف، وتقليل نسبة حصولها ما أمكن، ومع ذلك فالجريمة تزيد معدلاتها عاماً بعد عام، إن هذا لشيء عجيب ! أين المدارس؟ ! أين الجامعات؟ ! أين مراكز البحث؟ ! أن التقنيات؟ ! أين الجهود الدولية؟ ! أين المواثيق الأممية؟ ! أين التحالفات المؤسسية؟ !.

والجواب: كلها لا تصنع شيئا ذا بال، إذا غاب عالم الغيب عن عالم الشهادة، ذاك العالم الذي يحقق قول الله تعالى: " وذروا ظاهر الإثم وباطنه.. . " ([٧٦]) وقوله تعالى: " إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة أجر كبير " ([٧٧]) ذاك العالم الذي يغرس الإيمان الشامل في قلب الإنسان، بالأدلة الفطرية والحجج النقلية والبراهين العقلية، فيؤمن المسلم - عن قناعة تامة - بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ليعود أثر ذلك على الإنسان بالتربية الذاتية المنتجة، فيضبط الإنسان سلوكه، حضر الرقيب المادي أو غاب، وذاك ما لا يقدر عليه اليوم إلا المنهج التربوي الإسلامي.

من هنا جعل الخالق سبحانه الإيمان بعالم الغيب جزءً من تركيبة الإنسان، تلك التركيبة المتعلقة بالجانب الروحي، مصداقا لثناء المولى - سبحانه - على أهل التقوى في أول صف لهم في سورة البقرة: " ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب.. . " ([٧٨]) فجعل أول أوصافهم في مفتتح القرآن الكريم من هذه السورة العظيمة إيمانهم المطلق بالغيب، ومن رام ضبط السلوك البشري في غيبة عن الإيمان المطلق بعالم الغيب فقد ابتغى من الشوك العنب.

---

[٧٣]) سورة المائدة، آية ٥٠

[٧٤]) سورة الحشر، آية ٢٢

[٧٥]) سورة الرعد، آية ٩

[٧٦]) سورة الأنعام، آية ١٢٠

[٧٧]) سورة الملك، آية ١٢

[٧٨]) سورة البقرة، الآيات ١، ٢، ٣

٣. أهمية التوازن في العمل بين الحياتين: الدنيا والآخرة:

لا يمكن أن يعيش الإنسان حياة سوية واعية في غيبة عن هذا التوازن الذي حدد معالمه خالق الإنسان والعالم بما يصلحه ويصلح له، وقد ذم الله الذي يتجاوزون هذه القيمة ويعرضون عنها فقال سبحانه: " بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى " ([٧٩]) وبين – سبحانه - أن هذه الحقيقة الربانية ليست بدعا في القرآن الكريم، بل هي مدونة في كتب الأولين: " إن هذا لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى " ([٨٠]) ذلك أن الذي أمر بإعمار الآخرة بالعمل الصالح، هو ذاته الذي وسع مفهوم العمل الصالح ليشمل إعمار الدنيا كذلك، وإلا فما سر استخلاف الله تعالى لإنسان ليعمر الأرض: " هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا " ([٨١]) قال الإمام ابن عاشور رحمه الله في معنى الاستعمار: " أي جعلكم عامرينها.. . ومعنى الإعمار أنهم جَعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع لأنّ ذلك يعدّ تعميراً للأرض حتى سمي الحرث عِمارة لأنّ المقصود منه عَمر الأرض. " ([٨٢])

ولهذا صحح النبي محمد صلى الله عليه وسلم رؤية أصحابه الكرام لبعض المصطلحات ذات الدلالات الفكرية المرتبطة بإعمار الدنيا، وأن ذلك عبادة عظيمة يؤجر عليها صاحبها في الدنيا والآخرة، حين يستحضر النية في نفع البلاد والعباد، ومن ذلك أن رجلا مر على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فرأى الصحابة جِدَّهُ ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يَعفُّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان " ([٨٣]).

تلك هي الرؤية المتوازنة التي تصنع الإنسان السوي، العامل لدينه ودنياه، ولأولاه وأخراه، وما عدا ذلك، إنما هو الشطط والميل عن سواء الصراط الذي رسمه المولى سبحانه لعباده، وأمرهم بالسير فيه، يصدق على ذلك قول ربنا سبحانه: " وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ " ([٨٤])

٤. التسليم المطلق للنصوص الشرعية ومنها: (النصوص الغيبية):

ترتبط هذه القاعدة العظيمة ارتباطا وثيقا بعدد من القضايا العلائقية:

أولها - علاقة هذه القاعدة بعالم الغيب، هذا العالم الذي يشكل ثلاثة أرباع رحلة الإنسان الطويلة عبر العالمين: عالم الغيب وعالم الشهادة، ذلك أن المتتبع لرحلة الإنسان الطويلة عبر هذين العالمين يجد أنها ابتدأت من الجنة وهي غيب بالنسبة للإنسان، ثم انتقل منها إلى الحياة الدنيا، وجزء كبير منها بالنسبة للإنسان غيب لم يستطع الاطلاع عليه سواء كان ذلك في ماضيها أو مستقبلها أو حتى حاضرها، ثم تبدأ رحلته في الحياة الدنيا من عالم أرحام الأمهات، وجزء من هذا العالم غيب لا يعلمه إلا الله، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحياة البرزخية وكلها غيب لا يعلمه إلا الله، ثم ينتقل عن عالم البرزخ إلى أرض المحشر وكل ما يجري فيها غيب لا يعلمه إلا الله، ثم يرحل – بعد الجزاء والحساب - إلى القرار الأخير في الجنة أو النار، وكلها غيب استأثر الله بعلمها، فإذا عالم الغيب يستحوذ على هذه المساحة الهائلة من رحلة الإنسان.

---

[٧٩]) سورة الأعلى، آية ١٦، ١٧

[٨٠]) سورة الأعلى، آية ١٨، ١٩

[٨١]) سورة هود، آية ٦١

[٨٢]) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٢ ص ١٠٨

[٨٣]) الطبراني، المعجم الكبير، ج ١٩ ص ١٢٩، هو في صحيح الترغيب والترهيب رقم الحديث ١٦٩٢

[٨٤]) سورة القصص آية ٧٧

من هنا كان التسليم بالنصوص الشرعية الغيبية مسايرة فطرية ونقلية وعقلية لهذا الواقع، مهما بدا غائبا عن حياة الإنسان المادية في هذا العالم المحسوس، إذ ليس كل غائب عن الحس يوصف بأنه غير موجود، في العالم المادي، فتلك – في المسلمات العقلية – قضية مردودة، فكيف بما وراء ذلك من عالم الآخرة؟ !.

ثانيها – علاقة هذه القاعدة بصفة عظيمة من صفات الله تعالى أثبتتها الآية الكريمة، وهي صفة اليدَين لله تعالى، يدان تليقان بجلاله وعظمته، وإثبات صفات الله تعالى كلها - كجزء من الإيمان بالغيب - حق في منهج أهل السنة والجماعة وسلف الأمة الأولين من الصحابة والتابعين، رضي الله عنهم أجمعين، فاليد معلومة بدلالة النص الشرعي القرآني عليها، وكيفية هذه اليد مجهولة غير معلومة، لم يسأل الصحابة عنها حين سمعوا الآية، ولم يبتدئهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيانها، وهو الذي لا يؤخر البيان عن وقت الحاجة، والأمة يسعها في فهم النص الشرعي ما وسع نبيها محمدا صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، وهم أذكى الناس، وأعلمهم بالوحي، وأحوجهم للمعرفة، خاصة في الأمور التي لا مجال لأن يتسع فيها الدليل المادي، ومنها عوالم الغيب، والإيمان بهذه الصفة واجب شرعي متعين، لورودها في النص بصورة لا تقبل التأويل، والسؤال عن هذه اليد بدعة محدثة، مفرقة للفهم، مشتتة للتلقي، مورثة للتمزق، محققة للعداوات، وهو ما تسبب في خروج تلك الطوائف عن منهج أهل السنة والجماعة، حين ابتدعوا مناهج في فهم النصوص عموما – ومنها النصوص الغيبية - فهماً لم يكن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه الكرام.

وعليه فقد كان لزاما أن يتعلم المسلم هذه القاعدة التربوية في فهم النص الشرعي سواء كان هذا النص في القرآن الكريم أو السنة النبوية، وسواء كان متلعقاً بعالم الغيب أو الشهادة، لئلا يكون هذا سببا في التفرق والاختلاف، ولكي تحاصر هذه القاعدةُ مصطلحاتِ المنادين بأرخنة النصوص وأنسنتها وعقلنتها وفتحها وتعدد قراءاتها ([٨٥]) في مفردات بعضها باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب.

وليس هذا حجْراً فكرياً، ولا إقصائية ثقافية، ولا تفكيراً بالنيابة، إنما هو وضع العقل في مكانه الصحيح، وحماية له من الخوض في أمور فوق طاقته، واحتراماً للتخصص وآلياته وأدواته، وحماية للمجتمعات من منزلقات الفهوم المتفرقة، وآثارها السالبة على الفرد والمجتمع.

ثالثها: علاقة هذه القاعدة باحترام العقل البشري وصون قدراته، ذلك أن الإيمان بالغيب ليس أمراً غريباً عن الذات البشرية، ولا خارجا عن إمكاناتها، فإن الإيمان بالغيب أمر دلت عليه الفطرة السوية، وشهد به النقل والعقل، ولا يتنافى هذا كله مع احترام قدرات الإنسان العقلية وطاقاته الذهنية، بل احترامها أن تتحرك فيما تقدر عليه، وأن تعمل في ضوء ما تطيقه، ومن كلفها فوق ما تطيق فقد ظلمها، وبدد جهودها، ذلك أن العقل البشري جارحة كجارحة السمع والبصر، فهل يستطيع الإنسان أن يرى في عالم الشهادة كل شيء، أو يسمع كل شيء؟ !!! الجواب: لا يستطيع ذلك، لأن قدرات الإنسان لا تدرك في عالم الوجود كل شيء وهو أمر يؤمن به كل عاقل، فكيف بما وراءه من عوالم الغيب؟ !!!.

رابعها: علاقة هذه القاعدة بالابتلاء الذي ميز الله به المؤمن من الكافر، والصادق من المنافق، إذ لو كان عالم الشهادة هو الفيصل في الإيمان والكفر، والصدق والكذب، والإقبال والإدبار، لآمن الناس

([٨٥]) يراد بالأرخنة ربط النصوص الشرعية بتاريخ مضى نزلت لتعالج مشكلاته، دون قدرتها على معالجة مشكلات الواقع، ويراد بالأنسنة رد أو تأويل كل نص يخلو من الروح الإنسانية كنصوص القصاص مثلا، ويراد بالعقلنة: عرض النصوص الشرعية على العقل فما وافقه قبل وما لا فلا، ويراد بالفتح: أن يكون النص مفتوحا لكل من أراد فهمه كيفما يشاء بلا ضابط من علم ولا عقل، ويراد بتعدد القراءة: أن يترك للعقول تقرأ النص الشرعي وتفهمه وفق ما تشاء.

كلهم أجمعون، بيد أن الابتلاء يَبرُزُ في التسليم بالغيب، ليكون محكَّاً حقيقياً في القبول والإذعان، والتسليم بكل نص جاء عن الله تعالى في القرآن الكريم أو السنة الصحيحة، وعلى الأخص قضايا الغيب التي رافقتها براهين الفطرة والنقل العقل على حد سواء.

٥. القيام بمقتضيات الإيمان بالكرامة الإنسانية وأداء حقوقها:

يستلزم هذا الإيمان بكرامة الإنسان – بغض النظر عن دينه وجنسه ولونه ومكانته - لأنه المخلوق الوحيد الذي خلقه الله بيده، ومن تكريمه حفظ حقوقه المادية والمعنوية وصيانة آدميته ومشاعره ومراعاة نفسيته وتحقيق أمر الله تعالى فيه بالعدل والإحسان، وهو مقتضى قول الله تعالى: " ولقد كرمنا بني آدم.. . " ([٨٦]) فلم تقتصر الكرامة على دين دون دين أو جنس ون جنس، قال المفسرون في معنى التكريم هنا: " فمن تكريم الله للإنسان خلقه لهم على أكمل الهيئات وأحسنها، فإن الإنسان يمشي قائما منتصبا على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه ([٨٧]) وقال بعضهم: " هذا التكريم معناه أنه تعالى خلق آدم بيده وخلق غيره بطريق كن فيكون، ومن كان مخلوقاً بيد الله كانت العناية به أتم وأكمل، وكان أكرم وأكمل ولما جُعلنا من أولاده وجب كون بني آدم أكرم وأكمل " ([٨٨]) وقيل في هذا التكريم: " كرمه الله بالعقل، والنطق، والتمييز، والخط، والصورة الحسنة والقامة المعتدلة وتدبير أمر المعاش والمعاد " ([٨٩]) وقد أشار القرطبي – رحمه الله – بقوله: " والصحيح الذي يعول عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، به يعرف الله، ويفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه، تصديق رسله " ([٩٠]) وهي قواسم مشتركة بين بني البشر كلهم من غير تفريق.

وقال بعضهم: " قاطبة تكريما شاملا لبرهم وفاجرهم أي كرمناهم بالصورة والقامة المعتدلة والتسلط على ما في الأرض والتمتع به والتمكن من الصناعات وغير ذلك مما لا يكاد يحيط به نطاق العبارة " ([٩١]) وقيل: " بحسن الصورة والمزاج الأعدل واعتدال القامة والتمييز بالعقل والإفهام بالنطق والإشارة والخط والتهدي إلى أسباب المعاش والمعاد والتسلط على ما في الأرض والتمكن من الصناعات وانسياق الأسباب والمسببات العلوية والسفلية إلى ما يعود عليهم بالمنافع إلى غير ذلك مما يقف الحصر دون إحصائه " ([٩٢])

ولا شك أن التكريم الذي ناله آدم عليه السلام قد ناله ذريته من بعده، باعتبارها فرعٌ عن ذاك الأصل، فإذا كرم الأصل امتد التكريم للفرع.

أما من حيث الإيمان والكفر فتلك قسمة الله – تعالى - بين عباده، بناء على ما قدره سبحانه في سابق علمه من مستحقي الإيمان والكفر كما قال سبحانه: " هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن.. . " ([٩٣]) قال السعدي رحمه الله: " ذكر أنه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر، فإيمانهم وكفرهم كله بقضاء الله وقدره، وهو الذي شاء ذلك منهم، بأن جعل لهم قدرة وإرادة، بها

---

[٨٦]) سورة الإسراء، آية ٧٠

[٨٧]) الشنقيطي، أضواء البيان، ج ٣ ص ٤٤٨

[٨٨]) الرازي، التفسير الكبير، ج ٢١ ص ١٣

[٨٩]) الزمخشري، الكشاف، ج ٢ ص ٦٣٥

[٩٠]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٥ ص ٢٩٤

[٩١]) أبو السعود، تفسير أبي السعود، ج ٥ ص ١٨٦

[٩٢]) البيضاوي، تفسير البيضاوي، ج ٣ ص ٤٥٧

[٩٣]) سورة التغابن، آية ٢

يتمكنون من كل ما يريدون من الأمر والنهي " ([٩٤]) فمن قُصِر فيما آتاه الله على التكريم الآدمي ليس إلا، فقد انطبق عليه قول تعالى: " فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وما له في الآخرة من خلاق " ([٩٥]) ومن رزقه الله الإيمان ومنَّ عليه بنعمة الإسلام فقد تفضل عليه بالتكريم، الذي يربط دينه بدنياه، ويربط دنياه بآخرته، وذاك مقتضى قوله تعالى: " ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار " ([٩٦]).

من هنا تبرز هذه القيمة العليا لتؤكد عظمة الإسلام في استيعابه الأجناس كلها، وعلو كعب منهجه الوسطي في التعامل مع البشر – على اختلاف مللهم ونحلهم وأعراقهم وأجناسهم - وصيانة حقوقهم المحترمة، كل ذلك لأن الإسلام دين التسامح والعدل مع الجميع بلا استثناء، في تقرير عالمي لهذه الحقيقة التكريمية التي لا تتأثر بالمودة والشنآن كما أكدها المولى - سبحانه – بقوله: " وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ.. .: " فالحقوق – في ضوء الإسلام - لا تعترف بالجنسية ولا تتأثر بالعلاقات.

لقد أقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع يد فاطمة رضي الله عنها - وهي بضعة منه * - لو أنها سرقت ([٩٧]) وحاشاها رضي الله عنها.

كل ذلك لضمان حفظ حقوق الناس مهما كانت أديانهم وأجناسهم فذاك مقتضى كرامة الله للإنسان، وهو انعكاس رحمة الإسلام بالعالمين، بل هو انعكاس عالمية رسالته العظيمة.

٦. التوازن التربوي في معالجة احتياجات الإنسان:

إذا وقع التسليم بأن الإنسان ثنائي التكوين أو ثلاثيهُ، باعتباره مكون من جسد وروح وعقل، فقد لزم المربين وفلسفاتهم التربوية العناية باحتياجات الإنسان المادية، التي يمثلها الاحتياج الجسدي في جميع متعه، تأكيدا لقل النبي صلى الله عليه وسلم: " وإن لجسدك عليك حقا " ولزمهم كذلك تلبية مطالبه الروحية التي يمثلها الإيمان بالله تعالى بمعناه الشامل المتمثل في قول الله تعالى: " قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي له رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين " ([٩٨])، فإذا اختل هذا التوازن فمالت المطالب مع مكون دون آخر وقع الاضطراب في حياة الفرد والمجتمع، فلو أن الفلسفة التربوية – أي فلسفة - أعطت الجانب المادي الجسدي حقه – ولو في المباح - على حساب الروح، فإنما تصنع - في حقيقة الأمر - نصف إنسان، وإذا صنعت نصف إنسان، فهي بذلك تصنع نصف مجتمع ونصف حضارة، فكيف إذا تجاوز الأمر ذالك العب من المباح إلى الحرام، وهو ما تمثله حضارة العالم اليوم برأسماليتها المفرطة الغالية في الْعَبِّ المادي حد الجنون.

ولو أن الفلسفة التربوية – أي فلسفة - أعطت الجانب الروحي حقة – أيا كان هذا الحق، متفق مع الفطرة أو مجافٍ لها – فإنما تصنع مخلوقا مترهبنا مشلول الفكر والإرادة، لا يتمكن من العيش السوي في ظل احتياجاته الفطرية المادية المباحة.

وإذا جُعل الإنسان ثلاثي التكوين، فأضيف للجسد والروح المكون الثالث: وهو العقل، فقد لزم المربين وفلسفاتهم التربوية – بكل مكوناتها - التوازن الأمثل في العناية بغذاء العقل، المتمثل في العلم والمعرفة والقراءة وتحسين مهارات التفكير.

---

[٩٤]) السعدي، تيسير العزيز المنان بتفسير كلام المنان، ج ١ ص ٨٦٦.

[٩٥]) سورة البقرة، آية ٢٠٠

[٩٦]) سورة البقرة، آية ٢٠١

*أي قطعة من جسده صلى الله عليه سلم، وهي كناية عن شدة الحب.

[٩٧]) البخاري ، صحيح البخاري، ج ٤، ص ١٧٥ حديث رقم ٣٤٧٥.

[٩٨]) سورة الأنعام، آية ١٦٢

فإذا أخذ كل مكون حقه استقام الإنسان، فشكل مجتمعا متوازنا، وأنتج للبشرية حضارة متوازنة، وهو النموذج الذي برز للبشرية في أوج الحضارة الإسلامية التي شهد لها المنصفون حتى من خصومها.

٧. ارتباط العلم بالدين والنبوة:

فقد كان أبونا آدم عليه الصلاة والسلام نبيا مصطفى مكلّما موحىً إليه، كما ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه أبو أمامة رضي الله عنه: " أَنَّ رَجُلا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَبِيًّا كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: نَعَمْ، مُعَلَّمٌ مُكَلَّمٌ " ([٩٩]) وهو ما يلزم المربين أن يبينوا حقيقة الارتباط للمتربين، صيانة لعقول الأجيال من الاختراقات الفكرية التي تحاول – عبثا – ربط الدين بالخرافة، أو السطحية في التفكير، وجعل الدين – زعموا - مجرد شعائر وطقوس يمارسها العوام وبعض أنصاف المتعلمين لتلبية احتياجاتهم النفسية التي يعتورها المرض والقلق والاكتئاب.

إن منزلة النبوة هي أعظم منازل البشر، لاتصال الأنبياء جميعا – عليهم الصلاة والسلام - بالعلم الإلهي عبر الوحي بصوره المختلفة، وهو ما تحقق لأبينا آدم عليه الصلاة والسلام كما في قوله تعالى: " وعلم آدم الأسماء كلها " ([١٠٠]) وسار الأنبياء على ذلك، حتى ختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم، الذي آتاه الله تعالى علم الأولين والآخرين، وفصل له الوحي تفصيلا، كما في قوله تعالى: " وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " ([١٠١]) وقوله تعالى: " كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ " ([١٠٢]) وقوله سبحانه عن قرآنه العظيم: " قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا " ([١٠٣]) وقال صلى الله عليه وسلم عن السنة الشريفة كما في حديث المقداد بن معدي يكرب رضي الله عنه: " ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه " ([١٠٤]) قال أهل العلم: " وأهل السنة لا يستدلون بالقرآن دون السنة ؛ بل بالسنة والقرآن، ولا يكمل دين العبد إلا بالإيمان بما فيهما ؛ لأنهما مما أوتيه الرسول صلى الله عليه وسلم" ([١٠٥]) وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم قوله: " تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي " ([١٠٦]).

(لن تضلوا بعدي أبدا) هاهو الضمان من الضلال العقدي والعبادي والأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والفكري والإعلامي وغير ذلك، لأن التمسك بالوحيين سير على العلم المنهجي الدقيق في أصوله العامة وقواعده الكلية، أو في تفصيلاته التي يعجز العقل البشري أن يحدث فيها جديدا أو يحقق فيها تطويرا، لتكون ممارسات أهل الإسلام التربوية - النابعة من هذه المصدرين وما يتعلق بهما من علوم ومعارف - ممارسات مبنية على العلم في دقيق الأمور

---

[٩٩]) ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج ١٤ ص ٦٩ وقال إسناده صحيح، وهو عند الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم ٢٦٦٨

[١٠٠]) سورة البقرة، آية ٣١

[١٠١]) سورة الأعراف، آية ٥٢

[١٠٢]) سورة فصلت، آية ١

[١٠٣]) سورة الإسراء، آية ٨٨

[١٠٤]) ابن حنبل، مسند الإمام أحمد، ج ٢٨ ص ٤١٠ حديث رقم ١٧١٧٤ صححه الأرناؤوط.

[١٠٥]) السقاف، موقع الدرر السنية، رابط: http://www.dorar.net/enc/aqadia/107وهو من أوثق مواقع طلب العلم بشهادة كبار العلماء المعاصرين.

[١٠٦]) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج ١ ص ١٧٢ حديث رقم ٣١٩ وهو عند الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث برقم ١٧٦١.

وجليلها، كي يسعد بها الفرد والمجتمع، لارتباط تنفيذها بالعلم الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٨. **العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة تكامل لا علاقة صراع:**

اقتضت حكمة الله تعالى أن يخلق لأبينا آدم في الجنة مؤانسا من بني جنسه، فلم يخلقه حيواناً، ولا ملَكاً، ولا جنياً، وإنما خلقه آدمياً، وجعله أنثى كي تكون زوجة، ومايز سبحانه بين الرجل والمرأة في بعض المكونات الخِلقية، لحكمة يعلمها، لتكون الوظائف بعد ذلك تابعة للخِلقة، وهو اطراد منطقي، يشهد به العقلاء الأسوياء من البشر، وجعل آلية العلاقة بينهما هو التكامل، إذ لا يمكن أن تقوم الحياة بأحدهما دون الآخر، فهي سنة كونية واجتماعية، إذ لا يُتصور أن تقوم الحياة بين رجلين ولا بين امرأتين.

إنما المراد قيام الحياة بين رجل وامرأة، وقد ركب الله تعالى فيهما الفطرة التي تقتضي ميل أحدهما إلى الآخر لتقوم الحياة وتتناسل البشرية ويبقى النوع البشري.

وعلى هذا جعل الله تعالى للرجل أعمالا لا يمكن أن تقوم بها المرأة، وجعل للمرأة أعمالا لا يمكن أن يقوم بها الرجل، ومعنى ذلك أن التكامل هي السبيل الأوحد والصحيح لبناء علاقة تكاملية يؤدي فيها كل عنصر مهامه التي يحتاجها الآخر.

وقد شبه الباحث الظاهرة الإنسانية بالظاهرة الكونية، فالظاهرة الكونية وأنموذجها النواة، تتكون من موجب وسالب وقد رمز لها العلماء بـــ (+ و -) والمتأمل للرمزين يجدهما غير متماثلين، ولو جرد الإنسان ذهنه من القوانين الفيزيائية ثم سئل: هل من المفترض أن يكون بينهما تنافر أم تجاذب؟ لكان الجواب: تنافرا، لأنهما غير متشابهين في الشكل، وهذا في منظور الناس البشري، لكنهما في تقدير الله تعالى بينهما تجاذب مع اختلاف الشكلين! غير متجانسين وبينهما تجاذب، ليعلم الناس أن تقديرات الله تعالى غير تقديرات البشر، وأن موازينه غير موازين البشر، كل ذلك ليعرف العقل البشري قدره، وليحترم إمكاناته، ولئلا يقف من وحي الله موقف المعترض المعاند، كي لا ينطبق عليه قول الله تعالى: " أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ " ([١٠٧])

وما يقال عن الظاهرة الكونية يقال عن الظاهرة البشرية، فالرجل يمثل الموجب + والمرأة تمثل الرمز السالب – وما يقال عن الموجب والسالب في الظاهرة الكونية – من حيث التجاذب والتنافر – يقال عن الظاهرة الإنسانية.

ولو أن إنسانا أراد أن يغير في الظاهرة الكونية فيحول السالب إلى موجب بحيث تصبح المعادلة: موجب وموجب، هكذا (+ +) أو هكذا (- -) فإن النتيجة هي التنافر بلا شك ولن يستقيم أمر الكون بذلك.

وبالتالي فإن من أراد تحويل الظاهرة الإنسانية من رجل وامرأة إلى رجل ورجل أو امرأة وامرأة فإن النتيجة الحتمية لذلك هي التنافر، ولن يستقيم أمر الحياة الاجتماعية.

وهو عين ما يفعله المنادون اليوم بإذابة الفروق كليةً بين الرجل والمرأة، لتصبح المرأة مثل الرجل سواء بسواء، أو يصبح الرجل مثل المرأة سواء بسواء في أدوار الحياة المختلفة، وقد اخترعوا لذلك ما سوه بمصطلح (الجندر) وتلك إحدى صور معاندة الفطرة في الحياة المعاصرة، وستكون نهاية نتائجها إلى الهلاك والدمار.

إن العولمة على جهة العموم العولمة الاجتماعية على جهة الخصوص هي إحدى إفرازات هذا العصر الذي جعل قضية المرأة مطية لركوب المآثم: " عبر مؤسسات الهيمنة الدولية كهيئة الأمم المتحدة، والحركات النسوية، وجمعيات حقوق الإنسان، وأجهزة الأمم المتحدة المعنية بالمرأة

---

[١٠٧]) سورة يس، آية ٧٧

" [١٠٨] تسربت كثير من المفاهيم الغربية لبلاد المسلمين، فشنت حملات شعواء على عدد من الثوابت الشرعية المتعلقة بالمرأة.

إن افتعال الصراع بين الرجل والمرأة إحدى تلك الحيل الشيطانية المعاصرة، مررها أعداء الإسلام عبر مؤتمراتهم ومؤسساتهم البحثية والاجتماعية والإعلامية فصدقها بعض الأغرار في عالمنا الإسلامي، وراحوا يطلقون عبارات الصراع، ومنها: دعوى المساواة بين الرجل والمرأة – على طريقتهم – وتحقير المَحْرَم، وتهوين الاختلاط بحجج اجتماعية واقتصادية وسياسية واهية، والمناداة باستقلالية المرأة عن الرجل، وترويج عبارات هزيمة المرأة للرجل، ومنافستها له، وتفوقها عليه، وبعث الأفكار العنصرية ضد المرأة زعموا، فمن ذلك: ترديدهم لمصطلح الخطاب الذكوري، والمجتمع الذكوري، ومعالمه عندهم: أن للذكر مثل حظ الانثيين، وأن المرأة حرمت النبوة، والإمامة، والولاية العامة، والقضاء، والطلاق، والقوامة، إلى غير ذلك من العبارات المصادمة للحق، فتحولت العلاقة على أيدي هؤلاء الأشرار – في بعض البيئات - إلى علاقة صراع لا علاقة تكامل، وتلك لها آثارها الخطيرة على مستقبل الفرد والأسرة والمجتمع.

٩. العلم بعداوة الشيطان للإنسان:

وهو أمر بينه الخالق جل شأنه، وأعطى للبشرية مثالا في تلك العداوة التي ابتدأها الشيطان لأبينا آدم عليه السلام، حيث قال سبحانه عن إبليس حين طرده من الجنة : " قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (*) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ" [١٠٩] وحين وقع أبونا آدم عليه السلام وزوجه في المخالفة قال الله لهما: " أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ " [١١٠] ثم توالى تحذير المولى سبحانه للأبناء من هذه العداوة مذكرا آثارها على أبيهم بالطرد من الجنة فقال سبحانه: " يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة.. . " [١١١] وتقريب معنى هذه العداوة للمتربين بالأساليب التربوية المقنعة هو دور المربين ومؤسسات التربية، وتجلية هذه العداوة بالبراهين الفطرية والنقلية والعقلية، وإلا فما قيمة التربية والتعليم إن لم تكن عونا للمتربي كي ينتصر في هذه المعركة الكبرى على عدوه الحقيقي؟ !.

١٠. **عدم تقديم العقل على النقل:** وهذه معضلة الدهر، وهي وراء كل انحراف فكري قديم وحديث، وما ندت تلك الفرق الضالة عن منهج أهل السنة والجماعة إلا بهذا الانحراف المنهجي في تقديم العقل على النقل، وذلك مرتهن بافتراض صحة النص وصحة دلالته، وصحة العقل وصحة دلالته، وقد ابتدأ هذا الانحرافَ المنهجيَّ إبليسُ لعنه الله، حين أمره الله تعالى بالسجود لآدم عليه السلام، كما قال المولى سبحانه في ذلك: " وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبا واستكبر.. ." [١١٢] وكان استكباره نابعاً من قياسه العقلي الفاسد حين قال: " أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين " [١١٣] وهنا يبلغ العجب غايته حين يقر إبليس بأن الله هو خالق النار والطين، ثم يتحدث عن التحسين والتقبيح والتفضيل بينهما !!!.

لقد أمره الله أن يسجد لآدم وهو نص صحيح صريح، فقابله بالاستكبار والاعتراض والتعالي بل والتخطئة لربه الذي خلقه، مقدماً رؤيته القاصرة وعقله المخلوق على أمر الله تعالى، فأسس هذه المنهجية المنحرفة، ليسير عليها أتباعه عبر التاريخ، وهو الأمر الذي حذر منه القرآن

---

[١٠٨] إبراهيم الناصر، مقال: العولمة مقاومة واستثمار، مجلة البيان، الرياض.

[١٠٩] سورة ص، آية ٨٢، ٨٣

[١١٠] سورة الأعراف، آية ٢٢

[١١١] سورة الأعراف، آية ٢٧

[١١٢] سورة البقرة، آية ٣٤

[١١٣] سورة الأعراف آية ١٢

الكريم في قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " ([١١٤]) لئلا تقع الانحرافات العلمية والتربوية والفكرية والاجتماعية وغيرها.

وليس هذا حجراً على العقل ولا وصاية على التفكير، فإن العقل جارحة، مثله كمثل السمع والبصر، والإنسان لا يسمع ولا يبصر في عالم الوجود كل شيء، فضلا عن عوالم الغيب.

وهذه مقدمة يتفق عليها أهل الأرض كلهم، لتكون النتيجة الحتمية الاعتراف بقصور قدرات العقل في العالمين: عالم الغيب وعالم الشهادة، وإذا كان ذلك كذلك فإن الإيمان بأن العقل كبقية الجوارح أمر مسلم عند أهل الأرض قاطبة، له قدراته المحدودة، ولا يمكن تقديمه على علم الله الذي أحاط بكل شيء.

وهذا عمل منهجي دقيق، يجب أن يسبق المعرفة، أو هو مقدمة يجب أن تسبق النتيجة وإلا اختل العلم والعمل، وعادت النتائج بآثار عكسية عليهما في حياة الفرد والمجتمع.

وبما أن عالمنا الإسلامي عامة والعربي على جهة الخصوص يمر بثورة عقلية جامحة طاغية لا تقيم وزنا للنص الشرعي، فتجتهد في رده ما وجدت إلى ذلك سبيلا، فإن عجزت سعت إلى تأويله بالأرخنة والأنسنة والعقلنة كما سبق، يقع ذلك على أيدي بعض المثقفين والمفكرين – وإن كانوا قلة – إلا أنها متمكنة من المنابر التي تخاطب عامة الناس، تضليلا وتخبيلا.

لقد طلب أحد المفكرين ([١١٥]) بأن يوقف حد السرقة في زمننا المعاصر، منطلقا من مقدمة أن الصحابة كانوا يعتمدون على تقرير المصحلة في النظام السياسي الإسلامي غير عابئين بالنص الشرعي، وتلك مقدمة غير صحيحة، فإن الصحابة كانوا ينظرون في المصلحة الموافقة للشرع، لا المصلحة التي يراها الجابري نفسه، فقادت لنتيجة غير صحيحة، يقول الجابري: " إن هذا المبدأ مبدأ المصلحة هو المستند الذي كان الصحابة يرتكزون عليه في تطبيقهم، سواء تعلق الأمر بما فيه نص أو بما ليس فيه نص " ([١١٦]) فقاده ذلك إلى قوله: " تدبير كان معمولاً به في الجاهلية لعدم وجود سجون ولا سلطة تعتقل السارق، لقد كان العقاب البدني هو الوسيلة الزجرية الوحيدة التي تعاقب السارق ([١١٧]) بيد أن السجون اليوم أصبحت مؤسسات تربوية، يتخرج منها السجين حافظا للقرآن، أو مجيدا لصنعة في يده، تكون أمانا له من الفقر، فأيهما أحسن: أن نخرجه مقطوع اليد، أو في يده صنعة ينفق منها على نفسه ومن يعول.

هذه شبهة يمكن أن تنطلي على البعض، ولو كانوا مثقفين، لكنهم حين يعملون عقولهم يخرجون بنتيجة: أننا بهذه المنهج سنترك الحرية للناس يسرقون ثم ندخلهم السجون ثم نستصلحهم فيها ثم نخرجهم صالحين، وهذا ضرب من الجنون.

إن معنى ذلك أن نحول المجتمع إلى سراق، حين نترك إقامة الحد، ثم نهذبهم في أروقة السجون بعد ذلك ليخرجوا صالحين، إنه مبدأ العلاج قبل الوقاية وذاك مسلك مخالف للنقل والعقل.

١١. الأصل في حياة البشرية قيامها على الدين الصحيح:

بدأت حياة البشر على الأرض بعمارة أبينا آدم عليه الصلاة والسلام، فهو أب البشر، وقد اختاره الله نبيا مصطفى مكلما موحىً إليه كما سبق، ومن هذه الحقيقة الربانية يتأكد في الأذهان أن البشرية بدأت الحياة على الأرض بقيادة نبي، يوجهه وقومَه الوحيُ المقدس، وقد استمر الوحي يوجه حياة البشر على الأرض عشرة قرون، كان الناس فيها على التوحيد والإيمان والطاعة واجتماع الكلمة ووحدة الصف، وفي هذا يقول ربنا سبحانه في الحقيقة العلمية الربانية: " كان الناس

---

[١١٤]) سورة الحجرات، آية ١

[١١٥]) هو المفكر المغربي: محمد عابد الجابري

[١١٦]) محمد عابد الجابري، الديمقراطية وحقوق الإنسان، ص ١٥٩

[١١٧]) المرجع السابق ص ١٥٩، ١٦٠

أمة واحدة.. . " ([١١٨]) " أي على الهدى جميعا " ([١١٩]) بيد أن البشرية - بعد هذا كله - قد اعتُدي على دينها وتوحيدها واجتماع كلمتها ووحدة صفها من قبل شياطين الإنس والجن، فاختطفوا هذا كله، وهي الحقيقة العلمية الربانية التي ذكرها ربنا في الحديث القدسي الذي رواه عياض بن حمار رضي الله عنه أن ربنا سبحانه يقول: " وإني خلقت عبادي حنفاء وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم " ([١٢٠]) والحَنَف هو: الميل عن الضلال إلى الاستقامة ([١٢١]) ومما يؤكد هذا المعنى في مثاني القرآن قول ربنا سبحانه بأسلوب النفي: " وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا" ([١٢٢]) اختلفوا بسبب اختطاف الشياطين، وهو ما سماه ربنا سبحانه في الحديث القدسي السالف بـــ (الاجتيال) الذي يعني: " الذَّهاب بالشيء وسوقه وإزالته عن مكانه، وتحويله عن قصده ([١٢٣]) وحين وقع الذهاب والإزالة والتحويل عن دين الله بتعبير الحديث (الاجتيال) الذي يسميه الباحث بـــ (الاخطتاف) مسايرة لمصطلح الاختطاف الذي يَصِمُ به بعض المشوشين فكريا أهل الإسلام، أو يَصِمون به أهل الاستقامة والخير، الذين يريدون بعث الأمة لدينها، فيوصمون بأنهم يريدون اختطاف الناس، أو يريدون التفكير بالنيابة عنهم، أو يريدون الوصاية على عقولهم.

وحين اختُطفت البشرية عن توحيدها وفطرتها بعث الله تعالى النبيين مبشرين ومنذرين كما قال سبحانه: " كان الناس أمة واحدة " قرأ ابن عباس (فاختلفوا) فبعث الله النبيين مبشرين منذرين " ([١٢٤]) مبشرين بالجنة لمن ثبت على دينه وتحيده وإيمانه وفطرته، ومنذرين من سلَّم نفسه لهؤلاء الشياطين فاختطفوا توحيده واجتالوا فطرته، ليستقر في الأذهان أن مهمة الأنبياء – وفق ما نصت عليه الحقيقة العلمية الربانية – هي تخليص الناس من هؤلاء المختطفين، كما قال تعالى: " ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت " ([١٢٥]) وقد بين ربنا سبحانه أن كل نبي من أنبيائه كان يقول لقومه: " اعبدوا الله ما لكم من إله غيره " ([١٢٦]).

وحين رحل الأنبياء كلهم أجمعون أكتعون أبصعون ([١٢٧]) عن الحياة، وكان خاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بعد أن أدوا أدوارهم في هداية الخلق وردهم إلى توحيدهم وفطرتهم السوية، جعل الله قدره الكوني والشرعي أن يحمل العلماء ميراث الأنبياء، كما ورد في الحديث الصحيح الذي رواه أبو الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما أورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر. " ([١٢٨]).

---

[١١٨]) سورة البقرة، آية ٢١٣

[١١٩] الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٣ ص ٦٢١

[١٢٠]) مسلم، صحيح مسلم، ج ٤ ص ٢١٩٧ حديث رقم ٢٨٦٥

[١٢١]) ابن طولون، رسالة في تفسير قوله تعالى: " إن إبراهيم كان أمة " ج ١ ص ١٧، تحقيق: محمد يوسف، دار ابن حزم، ط ١، ١٤١٧ ه.

[١٢٢]) سورة يونس، آية ١٩

[١٢٣]) الأزهري، تهذيب اللّغة ج ١ ص ٥٢٤.

[١٢٤]) سورة البقرة، آية ٢١٣

[١٢٥]) سورة النحل، آية ٨٦

[١٢٦]) سورة هود، آية ٨٤

[١٢٧] أكتعون أبصعون بمعنى: أجمعون، وقد أورد الباحث هذه المفردات لتأكيد المعنى من جهة، وللإشارة إلى ثراء اللغة العربية من جهة أخرى.

[١٢٨]) الخطيب، مشكاة المصابيح: ج ١ ص ٧٤ قال المحقق الألباني: إسناده حسن.

ولأن العلماء اليوم لم يعودوا أفرادا فقط بل أصبحوا أفرادا ومؤسسات فإن دور هؤلاء الأفراد ودور هذه المؤسسات هو استكمال مشروع الأنبياء في هداية الخلق، تلك الهداية التي بها سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وليس هذا الأمر مقتصرا على علماء الشريعة فحسب، بل هي مهمة الجميع حتى علماء التخصصات الأخرى، فقد جعل الله تعالى العلم التطبيعي الطبيعي ميداناً لتصديق الوحي وتثبيت الناس على التوحيد وتعظيم الله كما قال سبحانه: " سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ " ([129]) فالهدف من سوق آيات الآفاق والأنفس، وبثها في هذا الكون الفسيح، وتسهيل قوانينها، وتيسير نواميسها، وتسخيرها في ميادين البحث، إنما هو لأمر غائي يكمن في الدلالة على أن القرآن حق كما ذكر ذلك المفسرون " ([130])

من هنا سيتبين لذي عينين التأصيل العلمي الحقيقي لمصطلح (الاختطاف) الذي يروج له بعض أعداء الإسلام اليوم، ومن تأثر بهم من أبناء المسلمين، من أن المسلمين يريدون اختطاف العالم إلى جهة واحدة، وتفكير واحد، وعقلية واحدة – يقصدون بها الإسلام الذي جعله الله تعالى منهج حياة - بل لربما ترددت هذه الأطروحات داخل المجتمع الإسلامي الواحد، على ألسنة بعض مثقفيه ممن ضلوا الطريق وأضلوا، فرددوا: عبارات اختطاف العقول وتعطيلها عن العمل، ووصفوا العقلية الإسلامية بذات البعد والواحد، ووصفوا المجتمع المسلم بأنه مجتمع إقصائي، رافضين – كما زعموا - أن يفكر بعضهم عن بعض، وأن تمنح العقول إجازة عن العمل، إلى غير ذلك من العبارات التي باطنها فيه الرحمة وظاهرها من قبله العذاب، وليست هذه الرؤى وليدة العصر فقد ابتدأها المشركون من قبل حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا بإله واحد فرددوا: " أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب " ([131]) وهو ما يردده شياطين الإنس والجن اليوم حين يقولون: أجعل الآلهة، والدين والأمة، والمنهج، والمصير، والمعرفة، والعقل شيئا واحدا؟ !.

على أن في هذا الكلام حقاً وباطلاً وقبولاً ورفضاً وصواباً وخطأً، لكن المراد الذين تدور عليه مناشطهم في الحياة هو نفيهم أن يكون الدين مهيمناً على الحياة، ومطالبتهم بأن تكون أحكامه نسبيةً، وقيمه سوقيةً، يأخذ منها الإنسان ما يشاء ويدع ما يشاء، أما أن يجمعها إطار واحد تدور الأحكام عليه وتنطلق القيم منه، فذاك - عندهم – دونه خرط القتاد، معرضين عن قول الله تعالى: " قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العلمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين " ([132]) مجافين قول ربنا سبحانه: " وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون " ([133]) مستكبرين على قول نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم في تحديد الوجهة ورسْم الطريق: " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، قال الصحابة: صفها لنا، قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي " ([134]) فقد رسمت الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة الطريق، وحددت المعيارية، ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينة.

---

[129]) سورة فصلت، آية ٥٣

[130]) ابن تيمية، الإيمان، ج ١ ص ١٨٦.

[131] سورة ص، آية ٥

[132]) سورة الأنعام، آية ١٦٢، ١٦٣

[133]) سورة الأنعام، آية ١٥٣

[134]) أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم، ج ١ ص ٢٦٦.

١٢. العلم قبل القول والعمل:

تلك قاعدة إسلامية نبوية سار عليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتوارثتها البشرية عبر تاريخها الطويل، فقد ابتدأت هذه القاعدة بالنبي الأول أبينا آدم عليه الصلاة والسلام الذي علمه الله تعالى أسماء كل شيء، وانتهت بالنبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، فقد أنزل الله تعالى عليه قوله في أول ما نزل: " اقرأ باسم ربك الذي خلق " ([١٣٥]) فلم يأمر – سبحانه – بشيء من التكاليف قبل القراءة، لم يأمر بتوحيد، ولا صلاة، ولاصوم، ولا ذكر، ولا خلق، ولا إعمار، لم يأمر بشيء من مطالب الدين أو الدنيا قبل المعرفة وتحصيل القراءة، والسبب أن بناء المعتقد من غير علم فتح لأبواب الخرافة على مصاريعها، وأن أداء الشعائر التعبدية قبل العلم فتح لأبواب البدع على مصاريعها، وأن إعمار الحياة على غير علم عبث لا طائل من ورائه، تذهب معه الأموال والجهود من غير ما فائدة.

وعلى هذا بوَّب الإمام البخاري – رحمه الله – في كتابه الصحيح باباً عظيماً أشار فيه لهذه القاعدة العظيمة فقال: بابٌ: العلم قبل القول والعمل، إنه العلم الذي يسبق عمل القلب وعمل الجوارح، سواء كان ذلك مما يتعلق بقضايا الدين أو قضايا الدنيا.

مما يؤكد على أننا أمة يحركها العلم ويبني حياتها كلها، فيما صغر من أمورها وما كبر، الأمر الذي جعل هذه الأمة تسابق مراكز البحث العلمي في العالم فيما فيه خير الفرد والمجتمع، إذ ما من خير ولا شر يمكن أن ينبه عليه العقل البشري إلا وقد أعطانا الإسلام منه خبرا، بل زاد على ذلك بما يعجز العقل البشري عن معرفته، فضلا عن تطبيقه والعمل به، وما قضايا الغيب إلا دليل ذلك، وما المعارف الغيبية والتوجيهات الإلهية في الوحيين إلا معارف علمية فوق طاقات البشر.

ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك: (التسمية) التي يتعدد الأمر بها وجوبا وندبا في كثير من مسالكنا الإسلامية في عباداتنا، وتعاملاتنا، وممارساتنا المختلفة، لما لهذا الكلمة العظيمة من أثر فاعل تعجز عن معرفة كنهه الإنس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، فمن ذلك:

حرَّم ربنا سبحانه الأكل من بهيمة الأنعام إذا لم يقل المسلم عند ذبحها (بسم الله)، كما قال سبحانه: " وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ.. . " ([١٣٦]) فما سر النهي هنا؟ وما علاقة كلمة تقال باللسان، وتذهب أدراج الرياح بطعام مادي يتناوله الإنسان؟ بمعنى: أن المسلم حين يقول: بسم الله يكون اللحم حلالاً، والحلالُ طيبٌ، كما هي القاعدة الشرعية المستقاة من قوله تعالى: "ويحل لهم الطيبات " ([١٣٧]) وحين يتعمد الذابح ألا يذكر اسم الله يكون اللحم خبيثا، والحرام خبيثٌ، كما هي القاعدة الشرعية المستقاة من قوله تعالى: "ويحرم عليهم الخبائث " ([١٣٨]) ولا زال السؤال قائما: ما علاقة كلمة ذهبت في الهواء من فم الذابح بنظافة اللحم وحليته أو قذارته وحرمته ؟.

يجيب عن السؤال: أن الأمر تعبدي محض، فإن الذي أمر بالتسمية هو الخالق سبحانه، العالم بما يصلح عباده وما يصلح لهم، ولزيادة طمأنينة القلب، فقد أجرت جامعة دمشق بحثا علميا تجريبيا توصل فيه فريق من كبار الباحثين وأساتذة الجامعات في سوريا إلى اكتشاف علمي يبين أن هناك فرقا كبيرا من حيث التعقيم الجرثومي بين اللحم الكبر عليه واللحم غير المكبر عليه، وقام فريق طبي يتألف من (٣٠) أستاذا من اختصاصات مختلفة: في مجال الطب المخبري، والجراثيم والفيروسات، والعلوم الغذائية وصحة اللحوم، والباثولوجيا التشريحية، وصحة الحيوان، الأمراض الهضمية، وجهاز الهضم، بأبحاث مخبرية جرثومية وتشريحية على مدى ثلاث سنوات لدراسة

---

[١٣٥]) سورة العلق، آية ١

[١٣٦]) سورة الأنعام، آية ١٢١

[١٣٧]) سورة الأعراف، آية ١٥٧

[١٣٨]) سورة الأعراف، آية ١٥٧

الفرق بين الذبائح التي ذكر اسم الله عليها ومقارنتها مع الذبائح التي تذبح بنفس الطريقة، ولكن لم يذكر اسم الله عليها، وكانت النتائج الصاعقة والمفاجئة التي وصفها أعضاء الفريق الطبي بأنها معجزات تفق الوصف والخيال، حيث أثبتت التجارب أن نسيج اللحم المذبوح بدون تسمية وتكبير مليء بمستعمرات الجراثيم ومحتقن بالدماء، بينما كان اللحم المسمى والكبر عليه خاليا تماما من الجراثيم، ومعقما ولا يحتوي نسيجه على الدماء، وأن كان زهريا، بينما غير المسمى والمكبر عليه كان اللحم قاتما أزرقا يميل إلى السواد، ثم عرض الفريق تصنيفات الجراثيم، في عمل علمي وصفه الفريق بأنه يمثل ثرة علمية حقيقة في مجال صحة الإنسان. ([١٣٩]) هذه آثار التسمية على الذبائح، عرضها الباحث ليتصور المسلم آثار التسمية على بقية شؤون حياته التي أمره الله بها، ومن ذلك:

عند الوضوء كما قال صلى الله عليه وسلم " لا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ " ([١٤٠]) وعند غلق الأبواب وإغلاق أوعية الماء وتغطية الآنية:" أَغْلِقُوا الأَبْوَابَ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَفْتَحُ بَابًا مُغْلَقًا، وَأَوْكُوا قِرَبَكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، وَخَمِّرُوا آنِيَتَكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ " ([١٤١]) وعند الذبح كما قال سبحانه : " ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإن لفسق " ([١٤٢]) وعند الأكل كما قال صلى الله عليه وسلم: " يا غلام سم الله. . . " ([١٤٣]) ومنه: " وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عِنْدَ طَعَامِهِ وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عِنْدَ دُخُولِهِ قال الشيطان: أدركتم المبيت والعشاء " ([١٤٤]) وعند الخروج من البيت كما قال صلى الله عليه وسلم: " مَنْ قَالَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ: بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ، يُقَالُ لَهُ: كُفِيتَ وَوُقِيتَ وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ " ([١٤٥]) وعند علاج المرض: " بِسْمِ اللَّهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا " ([١٤٦]) وعند النوم: " إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ: فَلْيَأْخُذْ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ فَلْيَنْفُضْ بِهَا فِرَاشَهُ، وَلْيُسَمِّ اللَّهَ " ([١٤٧]) وعند الجماع: " لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرُّهُ " ([١٤٨])

وعند ركوب الدابة، وركوب الإبل بصفة خاصة، وعند وضع الميت في قبره، وعند الغزو، وعند الإصابة في المعركة، وعند كتابة الكتاب أو الرسالة، وعند دخل المسجد، وعند دخول الخلاء، عند الخروج من المسجد، وعند مواجهة الأمور الصعبة، وعند التعثر في المشي.. . الخ.. وكل موقف مما ذكر له دليله من القرآن أو السنة الصحيحة.

إن مراكز البحث العلمي في العالم لتعجز عن إدراك العلاقة بين هذه الكلمة العظيمة وبين آثارها في الحياة المسلم، ولو قدر لأربابها أن يقفوا على شيء من ذلك فستظل أعناقهم لها

([١٣٩]) الموقع الرسمي لجامعة http://www.jameataleman.org/main/articles.aspx?article_no=1740 الإيمان تمت العودة للرابط يوم الخميس ١٤ / ٤ / ١٤٣٨ الساعة الثانية صباحا.

([١٤٠]) ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ج ١ ص ٢٥٦

([١٤١]) البخاري في بدء الخلق (٣٢٨٠)، ومسلم في الأشربة باب الأمر بتغطية الإناء (٣٧٥٦)

([١٤٢]) سورة الأنعام، آية ١٢١

([١٤٣]) البخاري، صحيح البخاري، ج ٧ ص ٦٧ حديث رقم ٥٣٧٦

([١٤٤]) مسلم، صحيح مسلم، ج ٣ ص ١٥٩٨ حديث رقم ٢٠١٨

([١٤٥]) الترمذي، سنن الترمذي، ج ٥ ص ٤٩٠

([١٤٦]) مسلم، صحيح مسلم، ج ٤ ص ١٧٢٤ حديث رقم ٢١٩٤

([١٤٧]) مسلم، صحيح مسلم، ج ٤ ص ٢٠٨٤

([١٤٨]) البخاري، صحيح البخاري، ج ١ ص ٤٠

خاضعين، وما هذا إلا جزء يسير من العمل العلمي الذي يبني عليه المسلم مسالكه اليومية ما دق منها ومن عظُم.

١٣. تعظيم مكانة العلماء العاملين في حياة الناس

تلك هي المكانة العظمي بين البشر، فهم الدالون عليه سبحانه وقد تجلت هذه المكانة في عدد من المواطن الكبرى، ومنها:

١. إشهاد الله تعالى لهم على أعظم مشهود وهو توحيده سبحانه، كما قال جل شأنه: " شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " ([١٤٩])
٢. رفع درجاتهم عنده سبحانه: " يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ " ([١٥٠])
٣. جعل العلم أعظم ما يستزاد منه: " وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا " ([١٥١])
٤. أن العلم ميراث النبوة: " العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما أورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر. " ([١٥٢])
٥. ارتباطهم بالعمل الرباني: " ولكن كونوا ربانيين " ([١٥٣])
٦. هم أهل خشية الله: " إنما يخشى الله من عباده العلماء " ([١٥٤])
٧. مؤشر إرادة الخير: " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " ([١٥٥])

بيد أن هذه المنزلة محفوفة بالمخاطر إن لم يقم أهلها بدورهم في الحياة كما أمرهم الله، من القيام بمقتضى العلم تعلما تعليما، فمن ذلك قوله تعالى: " وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ " ([١٥٦]) وقد توعد الله من كتم العلم بالنار يوم القيامة، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله: " من كتم علما ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة " ([١٥٧]) ومع هذه التبعة الثقيلة فإن العلماء بحاجة إلى التزود بعدد من القضايا التي لها أثرها في حضورهم وأثرهم على من حولهم، فمن ذلك:

أ - فقه الواقع: إذا يرتبط ذلك بما يسميه الأصوليون بـ (تحقيق المناط) فليس فقه الواقع بمنأىً عن الحكم الشرعي، بل هو الميدان التطبيقي له.

إن تنقيح المناط وتخريجه – وهو الأمر المتعلق بتحرير المسألة تحريراً علمياً وجمع أدلتها وتحليلها وتصور علل الأحكام في أصول المسائل لتلحق بها فروعها - مهمة يستطيع القيام بها كل عالم معتبر، لكن الأصعب منها: تحقيق المناط، وهو إنزال الحكم الشرعي بكامل حيثياته على الواقعة أو النازلة الجديدة، عبر فقه ملابساتها وحيثياتها ومآلاتها، والعوامل الموثرة فيها، كقتال مانعي الزكاة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإيقاف حد السرقة في عهد عمر رضي الله عنه، وإتمام الصلاة في عهد عثمان رضي الله عنه.

---

[١٤٩]) سورة آل عمران آية ١٨

[١٥٠]) سورة المجادلة آية ١١

[١٥١]) سورة طه آية ١١٤

[١٥٢]) ابن حجر، مشكاة المصابيح: ج ١ ص ١٥١ وقال حديث حسن.

[١٥٣]) سورة آل عمران آية ٧٩

[١٥٤]) سورة فاطر، آية ٢٨

[١٥٥]) البخاري، صحيح البخاري، ج ١ ص ٢٥

[١٥٦]) سورة آل عمران آية ١٨٧

[١٥٧]) أبي داوود، سنن أبي داوود، ج ٣ ص ٣٢١ حديث رقم ٣٦٥٨ وقال الألباني حسن صحيح.

ففي قتال تاركي الزكاة دار حوار عميق بين أبي بكر - رضي الله عنه - وعمر - رضي الله عنه - حول قتالهم، حيث اعترض عمر - رضي الله عنه - على ذلك بحجة تحريم قتال من يشهد ألا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، لكن الله شرح صدر أبي بكر في تحقيقه لمناط الحكم بين من فرق بين الصلاة والزكاة، الأمر الذي شرح له بعد ذلك صدر عمر – رضي الله عنه – وصدر الصحابة من بعده.

في إيقاف حد السرقة في عام الرمادة – في ظاهر الأمر – تعطيل لحكم الله القطعي في القرآن والسنة، لكن فقه واقع الناس في عام الرمادة، مرتبط بنصوص أخرى من الشرع الحكيم، المرتبط بالضرورات التي تحفظ بها الأنفس من الهلاك أو الضرر.

وفي إتمام الصلاة في عهد عثمان رضي الله عنه، وهو أمير الحج في تلك السنة، مع أن الأصل الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القصر، إلا أن فقه الواقع أثر في هذا المسلك، فقد ذكر ابن حجر – رحمه الله – وغيره من أهل العلم، أن المسوغ كان كثرة الناس في تلك السنة ومنه أعراب حديثي عهد بالإسلام، فخشي أن يفهموا أن صلاتي الظهر والعصر شرعتا ركعتين ركعتين، فأتمهما تعليما لا تغييرا للسنة. ([١٥٨])

وغير ذلك من الاجتهادات التحقيقية، ذات الارتباط بفقه الواقع، استحسانا، أو استصحابا، أو تحقيق مصلحة، أو درء مفسدة.

ب – الاطلاع على قدر من الثقافة: وهذا أمر حسن أن يكون العالم على قدر من الثقافة المعرفية التي تستوعب قدرا من المعارف، ذلك أن الثقافة تعني: إصابة الإنسان شيئا عن كل شيء، سيما وأن المعارف قد تنوعت مساراتها، وتشعبت فنونها، وهي مرتبطة – في بعض جانبها وسيلة وآلية وتطبيقا – بالعلم الشرعي، الذي يعد بوصلة الإنسان في سيره إلى الله، فمن ذلك:

الوعي بثقافة إدارة الأفكار، ذلك أن العالم أولى الناس بهذه الثقافة لما لها من الأثر الكبير في نجاح مشاريعه، إذ ليس النجاح في إدارة الفكرة مقتصرا على علم الإدارة، وتطبيقاته المعروفة، فلكل فكرة، أو مشروع، أو برنامج، أو قضية، إدارة واعية ترسم فيها الأهداف، وتصنع فيها الوسائل، وتعد لها الأساليب، وترتب في ثناياها الأولويات، وتختار لها الأوقات، وتحدد لها الأمكنة، وتسلك لها الطرائق. فلا يقبل من عالم – على جلالة قدره – أن يبدأ درسا لطلابه في التفسير مثلا، فيتتبع مع طلابه دقائق المسائل في كل آية، فتمضي السنون العشر وهو لم ينته من سورة الأنعام، وعليه، فمتى ينتهي من القرآن الكريم كله إذا يدير درسه بهذه الصورة، ومتى يخرج لنا طالب علم يفقه مراد الله من كل آية؟ !.

لكنه مطالب بأن يخطط لدرسه، فيرسم أهدافه، ويعد وسائله، ويحدد أوقاته، ويصنف طلابه، ويدرك ثقافة الفروق الفردية بينهم، ويقسم خطته الطويلة إلى إنجازات مرحلية، يقيس في نهاية كل مرحلة ما تم إنجازه، وجعل الغاية الكبرى من إقامة الدرس أن يدرك الطالب مراد الله من كل آية في ثلاث سنوات مثلا، على أن ينتهي في كل ستة أشهر خمسة أجزاء، لمكنته هذه الثقافة الإدارية من تحقيق أهدافه في سير علمي دقيق، ولا يمنعه ذلك أن يختص بعض طلابه النابهين بمزيد معرفة بعد ذلك.

لكن أن يعرض لطلابه في درسه دقائق المسائل في جزء يسير من القرآن الكريم وهم في ذات الوقت يجهلون القضايا العامة في بعضها، فتلك إشكالية ثقافية إدارية.

إنه التركيز على الكيف لا الكم، وهو ما ذكره البشير الإبراهيمي حين التقى علامة الجزائر ابن باديس - رحمه الله - في حج عام ١٣٣١ه فاتفق معه -حين العودة من الحج - على ألا يتوسعا في العلم وإنما كان اتفاقهما أن يربى النشء على فكرة صحيحة ولو كان علمها قليلا " ([١٥٩])

---

[١٥٨]) ابن حجر، فتح الباري، ج ٢ ص ٥٧١

[١٥٩]) مازن مطبقاني، عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، ص ٥١

إن العمل الثقافي مرتبط بقول عمر رضي الله عنه: " إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية " ([١٦٠]): " والمراد: أن من نشأ في الإسلام ولم يعرف حال الناس قبله يجهل تأثير هدايته، وعناية الله بجعله مغيرا لأحوال البشر ومخرجا لهم من الظلمات إلى النور " ([١٦١]) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله -: " وهذا حال كثير ممن نشأ في عافية الإسلام، وما عرف ما يعارضه ليتبين له فساده، فإنه لا يكون في قلبه من تعظيم الإسلام مثل ما في قلب من عرف الضدين " ([١٦٢]) وليس شرطا أن يعيش الإنسان الحالين: حال الجاهلية وحال الإسلام، فإن مجرد العلم بحال الجاهلية كافٍ لمعرفة الحق عند أولي الألباب، وذلك كله: " مفيد في الوقوف على الكثير من سنن الله عز وجل في النفس والمجتمع وفي وسائل الدعوة وطرق الإصلاح " ([١٦٣]).

ج – التكامل المعرفي مع المختصين: لأن تعدد المعارف وتنوع تخصصاتها، بل وتفتيت هذه التخصصات إلى تخصصات فرعية دقيقة - بعضها ذو صلة وثيقة بالقضية التي يتناولها العالم بالبحث أو الفتوى – أمر في غاية الأهمية، فقد يتوقف البحث لدى العالم أو الفتوى على بيان حقيقة طبية فيستعين بالأطباء من أهل الثقة والأمانة، وقد تتوقف القضية المبحوثة أو الفتى على رأي خبير اقتصادي يجلي للعالم دهاليز ما يجري في أروقة القضايا الاقتصادية للدول أو الشركات، فيستعين بأهل الثقة والأمانة من أرباب هذا التخصص، وقل مثل ذلك في بقية المعارف ذات الصلة بالعلم الشرعي بحثا أو دراسة أو فتوى.

إن التكامل المعرفي اليوم – على مستوى الأفراد وعلى مستوى المؤسسات - بات ضرورة ملحة، خاصة في مثل هذا الزمن الذي يشهد ثورة معرفية هائلة، أحدثت بتقنياتها وتطبيقاتها من التداخلات في حياة الناس مع يحتاج معه العالم والمجامع العلمية إلى هذا التكامل المعرفي، ضماناً لنزول المسائل الشرعية، والأحكام الفقهية، والأطروحات التربوية على مواطنها الصحيحة.

د – الحذر من مكر خصومهم: فإن للعلماء خصوم على مدار التاريخ، كيف لا، وهم حاملوا ميراث النبوة، هذا الميراث الذي ناصبه الأشرار العداء على مدار التاريخ، فقد كان للأنبياء أعداء يتربصون بهم الدوائر، كما قال ربنا سبحانه عنهم: " وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا " ([١٦٤]) قال الإمام السعدي رحمه الله: " قال الله مسلياً لرسوله ومخبرا أن هؤلاء الخلق [وهم كفار قريش] لهم سلفٌ صنعوا كصنيعهم " ([١٦٥]) وهؤلاء المجرمون لا يفترون يمكرون بالصالحين كمكرهم بنبي الله نوح عليهم السلام كما قال سبحانه عنهم: " ومكروا مكرا كبارا " ([١٦٦]) وهو كما يقول طنطاوي: " المكر الذي لا تحيط بحجمه العبارة. " ([١٦٧]) هذا العداء، وهذا المكر ذكره المولى سبحانه حين قال عنهم وهو يحذرهم مغبة وقوفهم في طريق

---

[١٦٠]) ابن تيمية، مجموع الفتاوي، ج ٥ ص ٢٦٤ دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٨ه.

[١٦١]) رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ج ١ ص ٢١

[١٦٢]) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، ج ٥ ص ٢٥٩

[١٦٣]) محمد علي الحسن، المنار في علوم القرآن، ج ١ ص ١٩٥

[١٦٤]) سورة الفرقان، آية ٣١

[١٦٥]) السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان ج ٢ ص ٣٥٣

[١٦٦]) سورة نوح، آية ٢٢

[١٦٧]) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، ج ١٤ ص ١١٢

الدعوة: " ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به ويبغونها عوجا.. . " (١٦٨) ليرتبط المكر الكبار بأفعال المجرمين على مدار التاريخ.

وهاهم ضُلَّال اليوم على اختلاف مللهم ونحلهم ومذاهبهم وأفكارهم - ولو كانوا ممن يتكلمون بألسنتنا، ومن بني جلدتنا - لهم سلف في المكر الكبار، صنعوا كصنيعهم، بيد أنه المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، كما هي سنة الله الجارية، ووعده الذي لا يخلف: " اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا " (١٦٩) لتحقق في الماكرين سنة الله التي لا تتبدل لا تتحول، فحاق بهم مكرهم، وانقلب عليهم تخطيطهم، وعادت عليهم اجتماعاتهم في السراديب المظلمة، والشبكات الظاهرة، والمواقع الخفية، بنقيض قصدهم، فرحلوا خاسئين، وبقي الإسلام يعلو فوق مكرهم، ويسمو فوق تشويهم، وها هو يمتد أثره عبر القرون، وهم يعذبون بمكرهم في قبورهم إلى يوم القيامة.

وعلماء الأمة اليوم في زمن العداء السافر على الإسلام وأهله يلزمهم الحذر من مكر المضللين، الذين يسعون جاهدين لبعث مفاهيم الثورة الفرنسية، وربط الإسلام بالكهنوتية، وعلماءه بالكهنوتيين، وتصوير العلماء على أنهم أعداء التقدم، الواقفين ضد حريات الناس، المبررين للظلم والتسلط تحت سياط النصوص، المحتكرين للحقيقة، الإقصائيين لغيرهم، ولا يزالون يبحثون عما يثير البلبة في صفوف العلماء بغية إسقاطهم وتفريق الناس من حولهم، حتى في المسائل الجزئية، فقد يسأل أحدهم عن حكم طبخ المرأة لزوجها، أو عن أثر جلستها تحت مقعد السيارة على إنجابها، أو يسأل عن ممارستها للنشاط البدني، كي يسمع من العالم كلاما على غير مراده، أو لربما يقول العالم كلاماً يجانبه الاجتهاد الصائب، فيطير به فرحا، وينشره عبر وسائل الإعلام التقليدي منه والحديث ليتشفى بما سمع وقد يسأل عن ذلك بعض المختصين في الطب أو غيره، ليضرب كلام العالم بكلام الطبيب ولو كان الطبيب موثوقا فيجد بغيته في صنع البلبلة، وابتغاء الفتنة.

من هنا كان لزاما على العالم أن يكون على حذر من كيد الخصوم، وأن يكون فقيها بما حوله، مستحضرا حيثيات القضايا ومآلاتها ومواقف الخصوم منها، لئلا يؤخذ على غرة، فقديما قال الأولون من سلف الأمة العظام: " زلة العالِمِ زلة العالَم " (١٧٠).

المحور الرابع: نتائج الدراسة وتوصياتها ومقترحاتها

أولا: النتائج:

١. حصر العلم فيما يخضع للقياس والتقويم والتجريب تحت اسم بــ (المعرفة العلمية) جناية على الدين والعلم، فإن حقائق الوحي أثبت من حقائق العلم إذا تعارضتا.
٢. لا يمكن أن يحدث التعارض البتة بين معطيات العلم المادي في حقائقه الثابتة وبين الوحي في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.
٣. المقدمات التربوية القائمة على الحقائق العلمية التي أنزلها الله تعالى في الوحيين: كتاب الله سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ذات الصلة الوثيقة بتربية المسلم كثيرة جدا.
٤. كان أول ارتباط بين العلم والحياة على يدي نبي معلم مكلم مصفى مختار، وهو نبي الله آدم عليه الصلاة والسلام، وفي ذلك تصحيح للتشويه المتعمد الذي ربط الدين بالخرافة، ولفَّق تهمة الصراع بين الدين والعلم.

---

(١٦٨) سورة الأعراف، آية ٨٦

(١٦٩) سورة فاطر، آية ٤٣

(١٧٠) الصنعاني، رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار، ج ١ ص ٤٧،، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ.

٥. كان الوحي هو الأصل في مسيرة الحياة عند انطلاقتها ثم طرأ عليها الضلال باعتداء المختطفين، الذين اجتالوا البشرية عن توحيدها، وفطرتها، واجتماع كلمتها، ولما شوهوا هذا الأصل وحرفوه وبدلوه وصرفوا الناس عنه، بعث الله النبيين عليهم الصلاة والسلام، وكلف حملة ميراثهم من العلماء على امتداد التاريخ لتخليص البشرية من هؤلاء المختطفين.
٦. العلاقة بين الرجل المرأة علاقة تكامل لا علاقة صراع، وقد حاول المختطفون عبر التاريخ أن يحيلوا هذه العلاقة إلى حرب ضروس، فعطلوا التوازن في حياة البشر، وبالتالي عطلوا الأمم من تنمية حياتها وتصحيح مسيرتها.
٧. خطورة ضعف الفقه المتعلق بفهم النصوص الشرعية، بمزاحمة المضليين لهذا الفهم بمصطلحات الأنسنة والأرخنة والعقلنة التي سلف الحديث عنها في البحث.
٨. عجز البشرية عن ضبط سلوك الفرد والمجتمع مع ما توصلت إليه من أساليب الترغيب والترهيب وما استخدمته من أحدث وسائل التقنية، لأنها تعاملت في تربيتها للإنسان بتحطيم مبدأ التوازن بين مكوناته الجسدية والروحية.
٩. أمة محمد صلى الله عليه أمة علمية، أعمال قلوبها وجوارحها وألسنتها مبنية على الحقائق العلمية التي وردت بها النصوص الشرعية، فيما كبر من الأمور وما صغر، وهو ما جعلها تسابق مراكز البحث العلمي في العالم بأصالة ما معها من الحق.
١٠. أثبت البحث أن البشرية تعرضت لاختطاف خطير عبر أحقابها الطيلة قام بهذا الاختطاف شياطين الإنس الجن، وأن مهمة الأنبياء والعلماء تركزت في تخليص البشرية من هؤلاء المختطفين، المعتدين على فطرتها، وتوحيدها، واجتماع كلمتها.

ثانيا: التوصيات:

١. يوصي الباحث بتفعيل هذه المقدمات التربوية التي وردت في البحث وتحويلها إلى خطوات إجرائية وتطبيقات عملية في حياة الفرد والأسرة المجتمع.
٢. يصي الباحث بتصحيح مفاهيم الناشئة تجاه ما بثته كتب المداخل إلى التربية من تشويه لحقيقة التربية عبر التاريخ، أسس بعضها للشرك، وقعَّد للخرافة.
٣. تدريس ضوابط فهم النصوص الشرعية، وعقد الدورات التدريبية التي تؤسس لهذا الفهم، ضمانا لعقول الناشئة من أن تخترقها أطروحات المضللين.
٤. تحذير أهل العلم من تربص المغرضين بألا يكون في أطروحاتهم ما يبرر للأعداء شن هذه الحملات بغية إسقاط الحق وأهله.
٥. عقد اللقاءات الدائمة بين المؤسسات المختصة في الإعجاز العلمي وبين المؤسسات التربوية لتعزيز قيم الحقائق العلمية التي توصلت لها الدراسات العلمية الحديثة.

ثالثا: المقترحات:

١. متابعة البحث في القواعد التربوية عبر التاريخ التربوي للإنسان، القائم على حقائق الوحي.
٢. توسيع الحديث عن علاقة التكامل بين الرجل والمرأة في ظل هذه الحملة الشعواء على المرأة المسلمة وتصوير علاقتها بالرجل على أنها علاقة صراع لا ينتهي.
٣. إفراد ضوابط فهم النصوص الشرعية بشيء من البحث، ذلك أن فهم النصوص هو البوابة الكبرى التي يلج منها لصوص الفكر على الأمة المسلمة، سعيا منهم ليكون النص الشرعي لا قداسة له، بل ليكون كلأ مباحا لكل أحد.
٤. تحليل بعض كتب المداخل إلى التربية ومقدماتها في ضوء رؤية تأصيلية إسلامية وتنقية ما لحق بها من تحريف وتشويه.
٥. إفراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ذات الصلة بالإعجاز العلمي بالبحث والدراسة، بحثا عن الحكمة من التشريع بعد أن يكون المقصد الأول من النص الشرعي هو العبودية المطلقة لله تعالى.

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**
- أبو الأعلى بن أحمد حسن المودودي، المصطلحات الأربعة في القرآن، تقديم: محمد الحداد، تخريج الألباني، د ط، د ت.
- أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم، تحقيق: محب الدين الخطيب و محمود الاستانبولي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط ٢، ص ١٤٠٧هـ.
- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، الفتاوى الكبرى، طبعة مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.
- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، الفتاوى الكبرى، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٨هـ.
- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط ٢، ١٤١١هـ.
- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، الإيمان، تحقيق: الألباني، المكتب الإسلامي، عمان، الأردن، ط ٥، ١٤١٦هـ.
- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
- أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، بيروت، لبنان، د ت.
- أحمد بن محمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط. يحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١هـ.
- إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، مكتبة دار السلام، الرياض، ط ٢، ١٤١٨.
- أنور الباز، التفسير التربوي للقرآن الكريم، دار النشر للجامعات، مصر، ط ١، ١٤٢٨هـ.
- رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) الهية المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م
- سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط ٢، د، ت.
- عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، تقرير القواعد وتحرير الفوائد، تحقيق: مشهور آل سلمان، دار ابن عفان، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤١٩هـ.
- عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي، تيسير العزيز المنان بتفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ.
- عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤٢٤هـ.
- علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ١٤٠٨ هـ.
- علي بن محمد الماوردي، أدب القاضي، تحقيق: يحي السرحان، مطبعة الرشيد، بغداد، ١٣٩١.
- مازن مطبقاني، عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤١٠هـ.
- محمد بن أحمد الصواف، الثاني من أجزاء ابن الصواف، مخطوط نشر في برنامج جوامع الكلم المجاني، التابع لموقع الشبكة الإسلامية، ط ١، ٢٠٠٤.
- محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تصحيح: هشام البخاري، دار الكتب، الرياض، ١٤٢٣هـ.
- محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، مكتبة المعارف، الرباط، ١٤٢١هـ.
- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري،، تحقيق: محمد الناصر، دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢ هـ.
- محمد بن إسماعيل الصنعاني، رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ.
- محمد حبان بن أحمد بن حبان، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار هجر، القاهرة، ط ١، ١٤٢٢هـ.

- محمد بن سورة الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر ومحمد عبدالباقي، مطبعة العحلبي، مصر ط ٢، ١٣٩٥ه.
- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.
- محمد بن عبدالله الحاكم، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١ه.
- محمد بن عبد الله الحاكم، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١ه.
- محمد علي الحسن، المنار في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ.
- محمد بن يزيد ابن ماجة القرزويني، سنن ابن ماجة، تحقيق شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة العالمية، ط ١، ١٤٣٠ه.
- محمد بن علي بن طولون، رسالة في تفسير قوله تعالى: " إن إبراهيم كان أمة " تحقيق: محمد يوسف، دار ابن حزم، ط ١، ١٤١٧ ه.
- محمد بن العمادي الحنفي أبو السعود، تفسير أبي السعود، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، د، ت.
- محمد بن عمر بن الحسن الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤١٧ه.
- محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي، ط ١، ١٣٨٠ه.
- محمدي عبد البصير حضيري، الإنسان في العهد القديم والقرآن الكريم، جامعة الأزهر كلية أصول الدين بالقاهرة، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، رسالة دكتوراه ١٤١٧هـ.
- محمود بن عمرو الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧ه.
- مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٤١٩.